المكتبة القرآنية
(٤)

# بين الرعاة والدعاة

تأليف

محمد محمود الصواف

مؤسسة الرسالة

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة السادسة

١٤٠٧هـ-١٩٨٧م

مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوثيران

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

## « بين الرعاة والدعاة »

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلى الله وسلم على سيد المرسلين وامام الدعاة والرعاة والمهتدين سيدنا « محمد » وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد : —

الصراع بين الحق والباطل قديم ومنذ خلق الله الخلق ، بدأت المعركة بين الأخيار والأشرار بدايتها بين هابيل وقابيل . وتلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . ولن تجد لسنة الله تحويلا . لذا فان الدين الحق منذ أن بدأت دعوته ، بدأت خصومته ومعركته وبرز له أعداؤه من كل مكان — يكيدون له . ويَصرُّون عنه . ويتآمرون عليه . ويحاربون دعاته ويعذبونهم ويضعون كل ما وسعهم من مكايد وعراقيل وحجب وحواجز ، دون سير نوره الوضاء في الآفاق . والله متم نوره

ولو كره الكافرون . ان شمعة واحدة إذا اشعلت لا تستطيع جيوش الظلام كلها أن تطفئها فكيف بنور الله العظيم إذا سطع وأضاء في الآفاق ؟؟ وهناك صنفان من الناس ان صلحا صلح الناس جميعاً وان فسدا فسد الناس جميعاً . العلماء والأمراء . والعلماء هم الدعاة والأمراء هم الرعاة .

ومن المؤسف حقاً أن يكون بعض الرعاة الذين استخلفهم الله في الأرض وولاهم أمور الناس مُنحرفين عن جادة الصواب أو زائغين عن الحق ومحاربين لدعاة الايمان . لذا كانت المعركة بين هؤلاء وهؤلاء محتدمة ومتواصلة . أمتدت أزماناً طويلة ولا تزال ممتدة في أحقاب مختلفة وأماكن متعددة وأخذت أشكالاً مختلفة من قتل . ونفي . وسجن . وتعذيب وتشريد وتنكيل . وحرق بالنار . وبث المفتريات والأراجيف ضد الدعاة الصادقين بمختلف وسائل الاعلام وبواسطة عملائهم من رجال المخابرات وغيرهم والأمة السعيدة حقاً هي .

## « صفة الرعاة »

الأمة التي يرزقها الله رعاة مؤمنين صادقين يكونون على بينة من أمر ربهم يخافون الله في رعيتهم فلا يظلمون الناس . ولا يعتدون على الحقوق ، يقيمون حدود الله ويقفون في حدود ما حرمه الله عز وجل عليهم . « تلك حدود الله ومن يتعد

حدود الله فقد ظلم نفسه » يسهر الواحد منهم في سبيل إسعاد رعيته إبتغاء مرضاة ربه . القوي عنده ضعيف حتى يأخذ منه الحق ، والضعيف عنده قوي حتى يأخذ له الحق . يتصور هذا الراعي الأمين دائماً أنه يحمل أمانة ينوء بها ، ويتمنى لو خرج من الدنيا وليس له ولا عليه شيء منها . يظهر طاعة الله في حسن سياسته للرعية فيُسْعَد وتسعد به الرعية ويعيشون جميعاً في أمن ورغدٍ من العيش الكريم ويحب الناس ويحبونه ، ويدعو لهم ، ويدعون له . وهؤلاء هم خير الرعاة وأفضلهم وأشرفهم عند الله والناس . روى عوف بن مالك الأشجعي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتُصَلُّون عليهم ويصلون عليكم « أي يدعون لكم وتدعون لهم » . وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم . قلنا : يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال : لا ما أقاموا فيكم الصلاة . لا ما أقاموا فيكم الصلاة رواه الامام مسلم . ومثل هؤلاء الولاة المحسنون هم الذين تسعد بهم الأمة وهم الذين سَيَنْجَوْنَ بإذن الله يوم يوقفون على جسر جهنم . فقد ذكر وروى أنه لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا ذر رضي الله عنه فقال له أبو ذر : أَشْهَدُ أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من ولي شيئاً من أمر المسلمين أُتي به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم فان كان محسناً نجا وإن كان مسيئاً انحرف به الجسر فهوى فيه سبعين خريفاً وهي

سوداء مظلمة : فقال له عمر : قد أوجع ذلك قلبي فمن يأخذها بما فيها ؟ فقال أبو ذر : من سلت لله أنفه ، وألصق خده بالأرض أما إنا لا نعلم إلا خيراً ، وعسى إن وليتها من لا يعدل فيها ألا تنجو من اثمها » .

## « مكانة فضل الرعاة »

للرعاة إن أقسطوا وعدلوا بين الرعية فضل عظيم فهم ظل الله في أرضه يأوي إليهم كل مظلوم من العباد . وإقامة العدل في الأرض من أعظم البر وبهم ينتشر الأمن وتستقر أحوال البلاد والعباد . قال الله تبارك وتعالى : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . والمعنى : فلولا أن الله تعالى أقام السلطان في الأرض يدفع القوي عن الضعيف وينصف المظلوم من الظالم ، لأهلك القويُّ الضعيفَ ، وتواثب الخلقُ بعضهم على بعض فلا ينتظم لهم حال ولا يقر لهم قرار فتفسد الأرض ومن عليها . ثم امتن الله تعالى على الخلق باقامة السلطان السلطان فقال تعالى : ولكن الله ذو فضل على العالمين » يعني في إقامة السلطان كما قال المفسرين . فيأمن الناس به فيكون فضله على الظالم كف يده عن المظلوم وفضله على المظلوم كف يد الظالم عنه . روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم . كما روي في الحديث الصحيح أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظـــله أمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعـــا عليه وتفرقا عليه . ورجل دعته إمرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعـــلم شماله ، ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليـــاً ففاضت عيناه وروى كثير بن مرة قال :

قال النبي صلى الله عليه وسلم : السلطان ظل الله في أرضه يأوي إليـــه كل مظلوم من عباده فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، وإذا جار كان عليه الإصر وعلى الرعية الصبر .

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه فقال : «لَعَمَلُ الامام العادل في رعيته يوماً أفضل من عبادة العابد في أهله مائة سنة أو خمسين سنة » وقال قيس بن سعد يوم من امـــام عادل خير من عبادة رجـــل في بيته ستين سنة . وروي أن سعد بن ابراهيم وأبا سلمة بن عبد الرحمن ومحمد بن مصعب بن شرحبيل ومحمـــد بن صفوان قالوا لسعيد بن سليمان بن يزيد بن ثابت لقضاء يوم بالحق أفضل عند الله من صلاتك عمرك . وهنـــاك أخبار كثيرة ووفيرة في فضل الرعاة إذا عدلوا في حكمهم . وأتقوا الله في ولايتهم . والوالي مأجور عـــلى ما يتعاطاه من إقامة

العدل ، ومأجور على ما يتعاطاه الناس بسببه ، فهو امام الناس والناس تبع له ، فإن استقام استقاموا وان زاغ زاغوا أو تاهوا وضلت بهم السبل . وإذا سن لهم سنة حسنة وعمل بها كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . كما أنه إن سن فيهم سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

## « نتائج جور الرعاة »

أما إذا جار الرعاة وظلموا وانحرفت بهم السبل عن طريق الحق فالويل ثم الويل للأمة التي نكبت بهم إذ تبتلى بأسوء الأحوال ، وتقع في التيه والضلال ، ويفشو فيها الشر ويقل الخير . قال العلماء : إذا جار السلطان انتشر الجور في البلاد ، وعم العباد فرّخت أديانهم واضمحلت مروءاتهم ففشت فيهم المعاصي ، وذهبت أماناتهم ، فضعفت النفوس ، وقنطت القلوب فمنعوا الحقوق وتعاطوا الباطل وبخسوا المكيال والميزان ، وجوزوا البهرج ، فرفعت منهم البركة وأمسكت السماء غيثها — ولم تخرج الأرض ريعها ونباتها . فقلّ في أيديهم الحطام فقنطوا وأمسكوا الفضل الموجود ، وتأخروا عن المفقود ، فمنعوا الزكوات المفروضة ، وبخلوا بالمواساة المسنونة ، وقبضوا أيديهم عن المكارم ، وتنازعوا المقدار اللطيف وتجاحدوا القدر الخسيس ففشت فيهم الايمان الكاذبة ، والختل في البيع

والخداع في المعاملة والمكر والجعلة في القضاء والاقتضاء ولا يمنعه من السرقة إلا العار، ومن الزنا إلا الحياء . فيظل أحدهم عارياً عن محاسن دينه ، ومتجرداً عن جلباب مروءته وأكثر همه قوت دنياه ، وأعظم مسراته من هذا الحطام ومن عاش كذلك فبطن الأرض خير من ظهرها .

هذا ما قاله العلماء في آثار جور الرعاة في الأمة وهو بعض نتائج الظلم الوخيمة عليهم وعلى الأمة التي تصاب بهم ولم تنكر عليهم ولم تقف في وجوه الظلم تصدهم عنه وتمنعهم منه ، وتحمي نفسها من نتائج الظلم وآثاره السوداء المظلمة .

قال وهب بن منبه : إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهـــل مملكته في الأسواق والزرع والضرع وكل شيء ، وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهـــل مملكته كذلك » وفي الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره برىء ومن أنكر سلم . ولكن من رضي وتابع .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تهلك العامـة بعمل الخاصة ولا تهلك الخاصة بعمل العامة والخاصة هم الولاة » .

وفي هذا المعنى قال الله تبارك وتعالى : وأتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » . وقال الوليد بن هشام إن الرعيـة

لتفسد بفساد الوالي وتصلح بصلاحـــه . وقال سفيان الثوري رحمه الله لأبي جعفر المنصور : يا أمير المؤمنين إني لأعلم رجلاً ان صلح صلحت الأمة! قال المنصور : ومن هو ؟ قال سفيان : أنت يا أمير المؤمنين . ومن العلماء من يضيف أصنافـاً أخرى تكون سبباً لفساد الأمـــة إذا فسدت هي . وهم من يسمونهم بالخواص إذ يؤمرون بالخير فـــلا يتبعونه وينهون عن الشر فيسارعون إليه فيكونون هم سبب هلاك الأمة وزوالها وتدميرها ويصدق عليهم قول الحـــق تبارك وتعالى : وإذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

وخواص الناس هم الذين ذكرهم عبد الله بن المبارك رحمه الله حيث قال : ما جاء فساد هذه الأمة إلا من قبل الخواص وهم خمسة : العلماء — والغزاة — والزهاد — والتجـار — والولاة . أما العلماء . فهم ورثة الأنبياء — وأما الزهاد فهم عمـاد أهل الأرض وأما الغزاة فجند الله في الأرض وأما التجار فأمناء الله في أرضه وأما الولاة فهم الرعاة فاذا كان العالم للدين واضعاً ، وللمال رافعاً . فبمن يقتدي الجاهل ؟ وإذا كان الزاهد في الدنيا راغباً ، فبمن يقتدي التائب ؟ وإذا كان الغازي طامعاً مرائياً فكيف نظفر بالعدو ؟ وإذا كان التاجر خائناً فكيف تحصل الأمانة ؟ وإذا كان الراعي ذئباً فكيف تحصل الرعاية ؟

## « البطانة السيئة »

إذا كان الراعي صالحاً رزقه الله بطانة صالحة ، تذكره إذا نسي ، وتعينه إذا ذكر . كما ورد ذلك في حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام. والويل كل الويل للحاكم إذا زاغ وأحاطت به بطانة سيئة تزين له المنكر وتعينه على الظلم والفساد في الأرض عندها تقع الأمة في الحيرة ويصيبها الخسف والمسخ ، وتتيه في بيداء الضلالة والمذلة والضياع . ويفشو فيها الشر ويقل الخير . والبطانة السيئة تغش الحاكم وتغريه بالباطل وتقربه من المنكر حتى تنزل به إلى أخس الدركات . وهي تختلق الأحاديث الكاذبة والقصص الموهومة والأخبار الملفقة . فهم يعملون لارضاء سيدهم ولو أغضبوا بذلك ربهم عز وجل . وأهل الأرض جميعاً . وإليكم هذا الخبر مما جرى للوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي حيث ذكر الرواة : أنه دخل ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك فقال : يا ابن شهاب ما حديث يحدثنا به أهل الشام ؟ قال وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال حدثونا أن الله تبارك وتعالى إذا استرعى عبداً رعية كتب له الحسنات ولم يكتب عليه السيئات قال كذبوا يا أمير المؤمنين أنبي خليفة أقرب إلى الله أم خليفة ليس بنبي ؟ قال بل نبي خليفة ، قال فأنا أحدثك يا أمير المؤمنين بما لا شك فيه ، قال الله تعالى لنبيه داود يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق

ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيـــل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» يا أمير المؤمنين فهذا وعيد الله لنبي خليفة . فما ظنك بخليفة غير نبي ؟! فقال الوليد ان الناس ليغروننا عن ديننا ». هكذا تفعـــل البطانة السيئة تغش الحاكم وتخدعه وتزين له الباطـل وتختلق الأخبار الـكاذبة والأحاديث الموضوعة والقصص الموهومة . ومن جهـة أخرى تكتم عنه ما يقع في البلاد من شرور وآثام . ومن تذمر وخصام . فلا تُسمع السلطان إلا ما يُدْخِل السرور على قلبه . وتكيل له المدح كيلا . وتـأتي بالمادحين من هنا وهناك ، وإذا رأوا البلاد تَغرق في الفساد وتنتشر فيها الجريمـة ويضطرب الأمن ويتذمر الناس ويصيح المخلصون والمصلحون من هنا وهناك أين السلطان ؟ أين الحكام ؟ أين الرعـــاة المؤتمنون على مصالح المسلمين ؟! ورغم هـــذه الصيحات فان البطانة السيئة تُصِمُّ آذانها عن هذه الأصوات وتعمي عيونها عن كل ما ترى في البلاد. من تدهور وانحراف . وتأتي الى السلطان فتستر عنه كل شيء وتنقل له أن البلاد بخير والناس ينعمون بالأمن والرخاء ويدعون لكم الليل والنهار ويرجون المزيد مما هم فيه من الخيرات والبركات الخ . ومـــا علم هؤلاء الكاذبون أن استتار الأخبار عن الرعاة قد يؤدي إلى نتائج سيئة لا يعلم مداها إلا الله عز وجل بل قد يصل إلى هدم البلاد وزوال ملك ذلك الوالي الفاضل الذي سلم الأمر لمثل هذه البطانة السيئة التي تتحمل الوزر كل الوزر بسوء

نيتها وسوء تصرفهـــا وكتمها الحقيقة عن ولي الأمر وصاحب السلطان . وهنا أذكر ما رسمه أحد الملوك في هذا الباب فقد روى العلماء أنه سئل بعض الملوك بعد أن سلب الملك منه : ما الذي سلب عزكم وهدم ملككم ؟؟.

فقال : شغلتنا لذاتنـــا عن التفرغ لمهامنا ووثقنا ببطانتنا فآثروا مرافقهم ومصالحهم علينا وظلم عمالُنا رعَيتنا ففسدت نياتهم لنا ، وتمنوا الراحة منا ، وحمل على أهل الخراج فقل دخلنا ، وبطل عطاؤنا عبيدنا فزالت الطاعة منهم لنا وقَصَدنَا عدونا فقل ناصرنا. وكان أعظم ما زال به ملكنا استتار الاخبار عنا » انتهى .

أجارنا الله وأجار المسلمين ورعاة المسلمين من مثل هـذه البطانات السيئة التي إذا ابتليت الامة بمثلهـــا هَدَّت كيانها وهدمت بنيانها ، وأوردتها موارد الهلكة والضياع والضلال .

## « أمـــا الرعاة »

فهم جند الله واحباؤه وأولياؤه ونصراؤه أختارهم الله لحمل أعظم أمانة في الأرض ورزقهم الاستقامة على حبـه والجهاد في سبيله وهم الصفوة المختارة من عباد الله الصالحين وهم أحب أهل الأرض الى الله عز وجل أجابوا الله في دعوته ودعوا الناس الى ما أجابوا الله فيه من دعوته سبحانه فهم خـيرة الله من عباده

اولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنه ورضوا عنهم ذلك لمن خشي ربه » آخر سورة البينة ...

## « الحسن البصري يصف الدعاة »

قال عبد الرزاق بن معمر عن الحسن البصري أنه رضي الله عنه تلا قول الله عز وجل : ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين » سورة فصلت — فقال رحمه الله : هذا حبيب الله هذا ولي الله ، هذا صفوة الله . هذا خيرة الله . هذا أحب أهل الأرض الى الله أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال انني من المسلمين هذا خليفة » تفسير ابن كثير جزء ٤ صفحة ١٠١ وبهذه الآية الكريمة :«ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين» يرسم ربنا سبحانه صورة الداعية إلى الله ويصف روحه ولفظه . وحديثه وأدبه وأسلوبه في دعوته الخيرة النيرة ، ويوجه إليها رسوله الحبيب العظيم إمام الدعاة وسيدهم وقائدهم محمداً عليه الصلاه والسلام وكل داعية إلى الله من أمة محمد منذ بعثه الله بهذه الدعوة المباركة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وكان ربنا سبحانه بدأ السورة التي جاءت بها هذه الآية وهي سورة « فصلت» بوصف جفوة المدعوين من الكفار والمشركين وسوء أدبهم وغلظتهم

وجفوتهم وتبجحهم ونكيرهم واستكبارهم بغير الحق حتى قالوا « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فأعمل اننا عاملون » فالنهوض بواجب الدعوة إلى الله أمر عظيم جليل لا تتحمله إلا النفوس الكبيرة فهو أمر شاق ومرهق ومتعب ومجهد، ولكنه بنفس الوقت أمر كبير وله شأن عظيم في الحياة الدنيا وفي الآخرة حتى قال الله فيه « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين » ان كلمة « الدعوة » هي أشرف وأفضل وأنبل وأحسن كلمة تقال في الأرض وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء . ولكن بشرط أن يصحبها عمل صالح خالص لله عز وجل وعلى أن تكون الدعوة لله خالصة مخلصة ليس لنفس الداعية فيها شيء ولا لحزبه ولا لأحد من الناس كائناً من كان إلا الله عز وجل . مع الاستسلام التام لله الواحد القهار وبيع النفس لهعز وجل حتى تتوارى مع الدعوة مصالح الداعية لذاتية وينسى كل شيء إلا دعوته وحتى تصبح كل شيء في حياته خالصة مخلصة لله ليس له فيها شأن إلا التبليغ اللهم هل بلغت فأشهد . وعلى الداعية أن يعتقد اعتقاداً جازماً لا التواء فيه ولا غموض ان الضار والنافع هو الله عز وجل ولن يقدر أحد بل ولن تقدر الأمة كلها إذا اجتمعت على أن تجلب له نفعاً أو تدفع عنه ضراً خلاف إرادة الله الذي لا راد لقضائه ولا مانع لعطائه والذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وهذا المعنى يصوره حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم العظيم في وصيته لابن عباس رضي الله عنهما ومنها : وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف ؟ وكل مسلم على هذه الأرض في حاجة ماسة إلى إتخاذ هـــذه الطريقة المضيئة المشرقة النابضة بالحياة نبراساً وهادياً له في حياته . كيما يسير فيها مستقيماً بلا خوف ولا وجـل وبلا تملق ولا تزلف لا للرعاة ولا لغيرهم من العتاة . وهذا لا يكون إلا بأن ينزل هذا الكلام منزلة العقيدة الراسخة . اعتقاد في يقـــين عميق يستحيل على جوارحه سلوكاً وعمـــلاً وأخلاقاً وآداباً . وإذا كان كل مسلم في حاجة ملحة ماسة إلى هذا الاعتقاد فإن حاجة المسلم الداعية إلى هذا أشد وأكبر . لا ليحيا في حياته مستقيماً فحسب بل ليصمد في الصراع الهائل الذي ينشأ بينه وبين أعداء الدعوة التي يدعو إليها سواء في الرعاة الظلمة أو غيرهم من أعداء الإسلام . عليه أن يستمسك بالحق الذي هداه الله إليه وأكرمه به . وعليه أن يدعو إليه بالحكمة والموعظـــة الحسنة ويبقى مجاهداً صامداً في وجه الأعداء أياً كانوا ومهما كانت قوتهم وأشد فهو لا يبالي ولا يهتم أبداً فقوة الله أكبر من قوتهم وأشد. والله ناصر من ينصره مهما طال الأجل وإذا كان كل منا يؤمن ، وحق عليه أن يؤمن ما دام مسلماً . بأن مـــا أصابه لم يكن

ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فلماذا يتردد في قول كلمة الحق ولماذا يبخل بماله من أن ينفقه لدعم دعوة الحق ورفع راية الإسلام ؟ ولماذا يتلكأ في زج نفسه في المعركة الأزلية الخالدة بين قوى الايمان والالحاد بين الحق والباطل . بين الخير والشر جندياً من جنود الله وجنود الإيمان والإسلام الحق ؟! وأرجو ان لا يتبادر إلى ذهن أحد من الناس أن حمل الدعوة أمر هين وميسور وسفر قاصد أو نزهة قريبة مرفهة منعشة بل هو والله الجهاد والجلاد والكفاح الطويل المرير الذي لا يهدأ ولا يلين والتعب والأذى والدم والدموع والآلام والسجون والمعتقلات والنفي والتشريد كل ذلك وغيره مكتوب على دعاة الحق في كل زمان ومكان وما هي إلا « الفتنة » أي الامتحان والاختبار التي أخبرنا عنها ربنا عز وجل في كتابه العزيز : « أم حسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » فلا بد من الجد والصمود والمثابرة والمصابرة حتى يأتي النصر بإذن الله فإن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا .

قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا وأتقوا الله لعلكم تفلحون » .

وبعد : ففي هذه الحلقة الرابعة من المكتبة القرآنية سيجد القارىء صورة صادقة لحقيقة هذه المعركة ودواعيها ودوافعها وأسبابها ونتائجها . وسورة البروج تبين بوضوح كل هذه الأمور

والله سبحانه لما ذكر أنه أعلم بما يريدون أن يفعلوه برسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه من المكر والخداع وإيذاء من سلم بأنواع الأذى وأصناف العذاب كالضرب والقتل والصلب والحرق بالشمس أو بالنار الخ . لما ذكر هذا سبحانه عقب بذكر أن هذه الأحوال شنشنة كانت فيمن تقدم من الأمم فكانوا يعذبون بالنار وغيرها من أصناف العذاب ولكن المعذبين كان لهم من الثبات في الايمان ورسوخ العقيدة ما منعهم أن يرجعوا عن دينهم بل زادهم العذاب إيماناً وتثبيتاً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل أما الذين عذبوهم فهم الخاسرون الخائبون الملعونون على كل لسان والمطرودون من رحمة الله في الدنيا والآخرة . وفي هذه السورة البروج تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن آمن معه من أصحابه الكرام عن إيذاء قريش والكفار لهم ووقوفهم في وجه الدعوة وصرفهم عن سبيل الله . وذلك بأن بين سبحانه أن سائر الأمم السالفة كانوا كذلك يفعلون مثل أصحاب الاخدود ومثل فرعون وثمود ثم ختم ذلك بأن بين أن كل الكفار كانوا في التكذيب سواء ثم عقب بقوله سبحانه والله من ورائهم محيط ثم ختم بقوله به هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » ليبين أن هذا الأمر شيء مثبت في اللوح المحفوظ . وهو ممتنع التغيير والتبديل وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً . ما قام أحد بالدعوة إلى الله إلا تصدت له شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم

إلى بعض زخرف القول غروراً . ولكن العاقبة للمتقين دوماً وأبداً . لذا فقد عمدت إلى تفسير هذه السورة العظيمة سورة البروج والسورة التي بعدها وهي سورة الطارق، ففيهما الكثير من العبر والآيات الدالة على عظمة الخالق جل وعلا . راجياً عظمة هذه الدعوة المباركة التي تركها أمانة بين الدعاة إليه عز وجل وقد تكفل بنصرهم وجعل لهم العاقبة الصالحة في الدنيا والآخرة . نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الدعاة إليه وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل وأن يتقبل منا أعمالنا انه نعم المولى ونعم النصير والحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة — محمد محمود الصواف

obeikandl.com

obeikandl.com

# سورة البروج

## والسماء ذات البروج

**سورة مكية . نزلت بعد سورة الشمس**

**عدد آياتها « ٢٢ » اثنتان وعشرون آية**

**قال الله تبارك وتعالى :**

والسماء ذات البروج واليوم الموعود . وشاهد ومشهود قتل أصحاب الاخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ، ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ، ان بطش ربك لشديد. انه هو يبدىء ويعيد . وهو

الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعّال لما يريد ، هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود ، بل الذين كفروا في تكذيب ، والله من ورائهم محيط ، بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ...

## مناسبتها لما قبلها

لقد اشتملت سورة البروج كالسورة التي قبلهـــا على وعد للمؤمنين ووعيد الكافرين ، وجزاء كل منهما كما نوّهت بشأن القرآن العظيم وفخامة قدره وجلال أمره . والله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه عز وجل أعلم بما يجمعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من المكر والخـــداع وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى وأصناف من العذاب – كالضرب والقتل والصلب والحرق بالشمس واحماء الصخر ووضع أجساد من يريدون ان يفتنوه . على هذا الصخر الذي أصبح كالجمر من تأثير حرارة الشمس المحرقة لما ذكر هذا سبحانه عقب بذكر ان هذه الأحوال شنشنة كانت بيمن تقدم من الأمم . فكانوا يعذبون بالنار وغيرها من أصناف العذاب ولكن المعذبين كان لهم من الثبات في الإيمـان ورسوخ العقيدة مـا منعهم أن – يرجعوا عن دينهم بل زادهم العذاب إيماناً وتثبيتاً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . أما الذين عذبوهم فهم ملعونون على كل لسان ومطرودون من رحمة الله في الدنيا والآخرة . سواء منهم من عـذب المؤمنين في سالف الحقب – والأزمان أو من عذاب المؤمنين بالرسالة المحمدية من كفار قريش

وطغاة مكة من الكفار والمشركين الذين أغواهم الشيطـان وختم على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم . وهذه السورة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن معه من أصحابه الكرام عن إيذاء الكفار لهم ووقوفهم في وجه الدعوة وصرفهم عن سبيل الله . وذلك بأن بَيَّنَ سبحانه أن سائر الأمم السالفة كانوا كذلك يفعلون مثل أصحاب الاخدود ومثل فرعون ومثل ثمود . وختم ذلك بأن بيّن أن كل الكفار كانوا في التكذيب سواء . ثم عقب بقوله سبحانه : والله من ورائهم محيط ثم ختم بقوله : بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » ليبين أن هذا الأمر شيء مثبت في اللوح المحفوظ . وهو ممتنع التغيير . وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ، مـا قام أحد بالدعوة إلى الله إلا تصدت له شياطـين الأنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولكن العاقبة للمتقين مهما طال الأمد، ولا عدوان إلا على الظالمين .

obeikandl.com

# التفسير

## والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود وشاهد ومشهود :

هـــذه السورة القصيرة توضح أموراً خطيرة ، وتعرض حقائق العقيدة التوحيدية الربانية وتذكر قواعد التصور الايماني وحقيقة الخصومة منذ القدم . بين المؤمنين وغير المؤمنين وثبات المؤمنين على عقيدتهم . حتى لو حرقوا وقتلوا تقتيلاً ، كما ترشدنا إلى قوة الله وعظمته وحلمه وعطفـــه على الجميع حتى الكفار والمشركين العتاة المتكبرين . وانه سبحانه متفضل على الناس اجمعين فهو الرب الكريم والاله العظيم .

## والسماء ذات البروج :

اقسم الله تبارك وتعالى بالسماء في عدة آيات من كتابـــه الكريم وذلك لما في القسم على عظيم القدرة وكمال الحكمـــة وعظمة هذه المخلوقات ، وليس ادل على عظمـــة السموات من تكرار لفظها وذكرها في العديد من آيات القرآن العظيم . وتوجيه الأنظار إليها والاعتبار بما فيها « قل انظروا مـــاذا في

السموات والأرض والسماء رفعها ووضع الميزان » .

ولفظ السماء حين يطرق الآذان يسبق إلى الذهن هـــذا السقف المحفوظ والمرفوع فوق رؤوسنا ونراه متماسكاً لا يختل ولا يضطرب ، وبه تتحقق عظمة البناء وعظمة الباني . وجلال الخلق وجلال الخالق عز وجـــل أما كيف هو مبني ! وبأي شيء مبني وما الذي يمسك اجزاء فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولاً ولا آخراً ، فذلك ما لا ندريه والله بـه أعلم . وإنما نوقن أن يد الله هي التي تمسك هذا البناء الشامخ العظيم عن أن يزول أو يحول .

يقول الشيخ طنطاوي جرهري رحمه الله في تفسيره : أن العجب ليأخذنا كل مـأخذ ويدهشنا أن نكون في عالم بديع الاتقان . عجيب البنيان . حسن الهندام والحق أحق أن هذه الدنيا بديعة الحسن ظريفة الصنع ، بهجة المنظر سارة للمكفرين كما أنها سجن الغافلين. كيف تجعل الكواكب التي عدت بمئات الملايين كأنها درر مرصعة في سقفنا؟ أليس من العجب أن تكون تلك الكواكب لمـــآرب في تلك السباسب ولبديع وحسن الاتقان وجمال الوضع تتراءى لنا انها انما وضعت لأجلنا وليزين بها سقفنا وكيف دبرت هذه الحكمة ؟ وكيف لوحظ في وضع هذه الكواكب جميعها أن تكون ذات منـافع بعيدة المدى ، فالشمس من تلك الشموس تشرق على سيـاراتها وعلى أراضيها ،

ثم هي من جهة تجعل زينة في سماء كل شمس وكل أرض وكل سيارة ويكون قدرها في تلك الزينة مختلفاً باختلاف الآفاق التي تتراءى لهـا . وكما أن الكواكب مرصعة في سمائنا فان شمساً مرصعة في ملايين الآفاق المحيطة بالكرات . « ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم » فالله سبحانه ، حدد لكل جرم سماوي خلقاً يسبح فيه لا يتخطاه . يسير كل من الاجرام في فلكه . بانتظام بحيث لا يشذ عن المجموعة فمن تأمل في هذا الكون العجيب وفي أوضاعه الدقيقة يركع إلى الله تعالى ويقر له بالوحدانية ولنبيه صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، ولا يسع كل ذي بصيرة عندما ينظر إلى ملكوت السموات والأرض وينظر إلى الكواكب وملايين الاجرام السماوية الهائلة ودوران كل في مداره بحكمة ودقـــة . إلا أن يؤمن بالله العزيز الحكيم . الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون « سورة الرعد »

فالله سبحانه وتعالى أقسم بالسماء ليُنبه إلى عظمتها وجلال قدرة خالقهـا عز وجل. وعظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق كما أن عظمة المصنوع تدل على عظمة الصانع .

والله تبارك وتعـالى أقسم في هـذه السورة بما فيه غيب وشهود وهو السماء ذات البروج فـــان كواكبها مشهود نورها

مرئي ضوؤها معروفـــة بالعيان حركاتها . وكذلك البروج شاهدها . وفيها غيب لا نعرفه بالحس وهو حقيقة الكواكب وما أودع فيها من الأسرار ومن العوالم التي لا نراها ولا ندرك حقيقتها .

واقسم سبحانه بما هو غيب صرف وهو اليوم الموعود وما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب .

وأقسم تعالى بما هو شهادة صرفة وهو الشاهد : أي ذو الحس . والمشهود : وهو ما يقع عليـــه الحس . اقسم الله عز وجل بكل ما سلف أن من كان قبلهم من المؤمنين الموحدين ابتلوا ببطش اعدائهم . واشتدادهم في إيذائهم حتى أنهم أحرقوهم بالنيران ، وقذفوهم بها ولم تأخذهم بهم رأفـة ولا رحمة . ولكن الله بعد ذلك أخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر . فلئن صبرتم أيهـــا المؤمنون على الأذى فسوف يوفيكم الله اجوركم وليأخذن اعداءكم أخذ اليماً . ولينزلن بهم من العذاب ما لا قبل لهم به فأصبروا فإن الله مع الصابرين .

## والـــبروج :

من قوله تعالى : والسماء ذات البروج ، هي النجوم العظام في هذا الفلك العظيم ، منها ما نراه بأعيننا المجردة ، ومنها مـــا لم يصل نوره إلينا حتى الآن لذا فهي لا ترى حتى بالمكبرات

والمراصد الكبيرة ، ويقول علماء الفلك إن من النجوم نجوماً ما سوف لا يصل نورها إلى كرتنا الأرضية في أقل من ألف وخمسمائة مليون سنة مع العلم بـأن الضوء يسير في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلومتر. ويصل في سيره إلى القمر في قدر ثانية وثلث الثانية .

والشمس تجري حول الكرة الأرضية لدار حولها في الثانية الواحدة ثمان مرات. ولو أطلق مدفع فان قنبلته تجري وتسير نحو سنة ونصف السنة حتى تقطع المسافة التي يقطعها الضوء في ثانية واحدة . فما أبعد الكواكب عنا وما أعظم خالق هذه الكواكب العظيم الجليل القدر على كل شيء . وقد قلنا أن الله تبارك اسماؤه اقسم بهذه الكواكب لما فيها من عجيب الصنعة وباهر الحكمة ، وهو عز وجل يحثنا على البحث عن هذه الكواكب وما فيها من عوالم . لنستدل بذلك على عظيم قدرته وجليل حكمته وبالغ عظمته .

قال تعالى « تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا » .

قال إبن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتاده والسدى: البروج النجوم وقال يحيى بن رافع البروج قصور في السماء والبروج واحدها برج ، ويطلق على الحصن والقصر العالي وعلى أحد بروج السماء الأثني عشر وهي منازل الكواكب والشمس والقمر.

يسير القمر في كل برج منهـا يومين وثلث يوم . فذلك ثمانية وعشرون يوماً . ثم يستسير – ليلتين وتسير الشمس في كل برج منها شهراً .

والبروج ستة منها في شمال خط الاستواء. وستة في جنوبه.

فالتي في شماله ثلاثة ربيعية وهي الحمل والثور والجوزاء وابتـداء الحمل من الاعتـــدال الربيعي ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر مارس آذار .

وثلاثة صيفية وهي : السرطان والأسد والسنبلة .

وابتداء السرطان من نقطة الانقلاب الصيفي . ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر جونية حزيران .

والسنة التي جنوب خط الاستواء ثلاثة منها خريفية وهي : الميزان والعقرب والقوس . وابتداء الميزان من الإعتدال الخريفي ويصادف اليوم الرابع والعشرين من شهر سبتمبر – أيلول .

وثلاثة شتائية وهي : الجدي . والدلو . والحوت .

وابتداء الجدي من الانقلاب الشتوي ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون أول – ديسمبر فتكون السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم . وهي مدة دخول الشمس إلى النقطة التي فارقتها من تلك البروج . وكل برج ثلاثون

درجة فمجموعها ٣٦٠ ثلاثمائة وستون درجة .

كل درجة بمقدار أربع دقائق . ومجموعها أربع وعشرون ساعة والشمس كما قلنا تقطع هذه البروج كلها مرة في السنة كل برج في شهر ، وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمان وعشرين يوماً وكسور .

والبروج في كلام العرب هي القصور . قال تعالى اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة . وشبهت النجوم بالقصور لعلوها . ولأن النجوم نازلة فيها . والمراد بها هنا أجزاء الفلك الأعظم المسمى بالفلك الأطلس وفلك الأفلاك .

يقول الشيخ موسى جار الله رحمه الله في كتابه :

« ترتيب السور الكريمة وتناسبها في النزول وفي المصاحف » ص ٦١ : فان كان البروج في هذه الآية الكريمة وفي قول الله : تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً هي بروج الهيئة القديمة . كما أتفقت عليه التفاسير فإن فلك الشمس الظاهر وهو المدار السنوي للأرض في الواقع ، واقع في هذه البروج . والأرض في مدارها السنوي تقطع كل هذه البروج . هذا وجه وجيه ، لنا أن نقتنع به في بيان نزول سورة البروج بعد سورة الشمس .

وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

زهقت الهيئة القديمة وجاء النظام الحق. نظام السموات التي رفعها الله بغير عمد نراها وهذه السموات لها منظومات . منها منظومة شمسنا هذه بسياراتها التسع وشمسنا هـــذه ليست من كبار الشموس ، ومنظومنا هـذه ليست من كبار المنظومات وكل منظومة من هذه المنظومات يسميها القرآن برجا . والسماء التي تحوي كل هذه المنظومات يسميها القرآن الكريم : السماء ذات البروج . بها اقسم الله في كتابه الكريم في سورة البروج .وهذه السماء ذات البروج التي تحوي كل هذه المنظومات يحدث خلال منظوماتهـــا كل يوم بشأن الله إنشقاقات وبتلك الإنشقاقات يحدث في المجرة وخارجها سموات وللإشارة وبالارشاد إلى مثل هذه الحوادث الهائلة العظيمة وضعت سورة البروج بعد سورة الانشقاق » والله أعلم .

والسموات سبع لا تزيد ولا تنقص كما نص بذلك كتاب الله العزيز حيث قال تبارك وتعالى « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتـــنزل الأمر بينهن » .

## واليوم الموعود وشاهد ومشهود :

اليوم الموعود : هو يوم القيامة باتفاق المفسرين وهو الذي ذكره الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه العزيز ووصفه الله في قوله : يوم لا ينفع مـــال ولا بنون إلا من اتى الله بقلب

سليم . وهو يوم القيامة يوم الحسرة الندامة : يوم تقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيـــد وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيـــد .

وهو يوم الفصل في أحداث الدنيا وتصفية الحساب لأهل الأرض وما كان منهم من أعمال في الدنيا وهو اليوم الموعود الذي وعد الله به عباده ووعدهم بالحساب والجزاء فيه وأمهل فيه المتخاصمين والمتقاضين إليه .

قال تعالى :

فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » وقال :

ويوم ينفخ في الصور ففزع من فى السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين . النمل وقال : وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأتِ لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد » هود .

فمن الناس أناس أشقياء في ذلك اليوم لسوء سيرتهم وخبث طويتهم ، ولمخالفتهم لما أمر الله به ومنهم اناس سعداء بايمانهم وجميل أعمالهم وصالح أفعالهم وتقواهم فلهم الهناءة ولهم البشرى بما قدمت أيديهم .

**وشاهد ومشهود :**

ان الله جلت قدرتـــه يقسم هنا بجميع العوالم والمخلوقات الشاهد منها والمشهود وله سبحانه في كل شيء دلالة على وحدانية الخالق وتفرده بالخلق والتكوين . وكل شيء من هذه المخلوقات يقر ويشهد بعظمة الخالق وجليل قدرته .

وفي يوم القيامة تعرض الأعمال وتعرض الخلائق فتصبح كلها مشهود ويصبح الجميع شاهدين والله سبحانه شاهـــد الجميع قال تعالى :

ان في ذلك لآية لمن خـاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » هود . وسوف يشهده الأولون والآخرون وأهل السماء والأرض قال الزمخشري رحمه الله في تفسيره :

وشاهد ومشهود : يعني وشاهد في ذلك اليوم ومشهود فيـه والمراد بالشاهد: من يشهد فيه من الخلائق- كلهم ، وبالمشهود: ما في ذلك اليوم من عجائبه » .

وقد أختلفت أقوال المفسرين في معنى الشاهـــد والمشهود فقال علي وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة رضي الله عنهم :

الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة وهو قول الحسن .

قال القشيري : فيوم الجمعة يشهد على كل عامل بما عمل فيه.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره :

قلت وكذلك سائر الايام والليالي فكل يوم شاهد وكذا كل ليلة . ودليله ما رواه أبو نعيم الحافظ عن معاوية بن مره عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

ليس من يوم يأتي على العبد الاينادي فيه يا ابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل عليك شهيد فأعمل فيَّ خيراً أشهدْ لك به غداً فاني لو مضيت لم ترني أبداً ويقول الليل مثل ذلك » .

وقال سعيد بن المسيب : الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفه .

وروي عن علي رضي الله عنـــه قال : الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر .

وقال ابن عباس والحسين ابن علي رضي الله عنهما : المشهود يوم القيامة ، لقوله تعالى :

ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . هود

وقد وردت عدة وجوه في معنى الشاهد عند العلماء فقيل هو الله تبارك وتعالى والدليل قوله تعالى :(وكفى بالله شهيدا )

( ٧٩ النساء ) وقوله : قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم ) ( ١٩ الانعام ) وقيل الشهيد هو محمد صلى الله عليه وسلم والدليل قوله تعالى :

فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ) (٤١ النساء وقوله تعالى يأيها النبي أنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ) . ( ٤٥ – الأحزاب ) .

وقال الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة – والمشهود سائر الأمم – والدليل قوله تعالى / وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ) ( ١٤٣ سورة البقرة ) . وقيل الشاهد الحفظة والمشهود بنو آدم وقيل الليالي والأيام .

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره :

وقد شهد المال على صاحبه . والأرض بما عمل عليها . ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم ( ان هذا المال حضرٌ حلوٌ ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل أو كما قال رسول الله صلى عليه وسلم – وأنه من ياخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة .

وفي الترمذي عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يومئذ تحدث أخبارها .

قال : اتدرون ما أخبارها . قالوا الله ورسوله أعلم .

قال : فان اخبارها أن تشهد على كل عبد او أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا وكذا وكذا قال — فهذه أخبارها .

وقيل . المشهود يوم الجمعة ، كما روى أبو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة فانه يوم مشهود تشهده الملائكة .

وقال أبو بكر العطار : الشاهد الحجر الأسود ، يشهد لمن لمسه بصدق واخلاص ويقين والمشهود الحاج هذه خلاصة ما ورد في معنى هذه الآية الكريمة وكلها خليقه بالاعتبار ، جديرة بالاستذكار حرية بأن يذكرها المسلمون دائماً ويعلموا أنهم شهداء الله في هذه الأرض .وأنهم بنفس الوقت شاهدون ومشهودون في الدنيا والآخرة . ربنا اننا آمنا بما أنزلت وأتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين .

**قتل أصحاب الاخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود :**

هذا خبر وفيه قصة عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم فحفروا لهم في الأرض شقوقاً وأخاديد

وأججوا فيها النيران وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به . ثم أرادوهم أن يكفوا عن دينهم وإيمانهم بالله فأبوا عليهم ولم يقبلوا منهم فقذفوهم في النيران وهم ينظرون .

وهذه السورة – سورة البروج – وفيها هذه القصة بالذات إنما وردت لتثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكـــة وتذكيرهم بمـــا جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان والحاق أنواع الأذى بهم وصبرهم وثباتهم على عقيدتهم حـــتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار لأولئك المؤمنين الصادقين وجميع الكفار ومن يقوم بأعمال الكفار فيقتل المؤمنين بغـــير جرم اقترفوه ولا ذنب اجترحوه فهم ملعونون جميعاً ومطرودون من رحمة الله، ومن الحق أن يقال في كفار قريش : قتلت قريش كما قيل في أصحاب الاخدود قتل أصحاب الاخدود . وقتل دعاء عليهم . وقتل : أي لعن .

قال ابن عباس : كل شيء في القرآن قتل . فهو لعن .

والاخدود : الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق جمعه : أخاديد . ومنه الخد لمجاري الدموع والمخـــدة لأن الخد يُوضع عليها .

**قتل أصحاب الاخدود :**

أي أخذوا بذنوبهم ، ونزل بهم نكال الدنيا وعذاب الآخرة

ويمكن أن يكون المراد بأصحاب الاخدود القاتلين ، ويمكن أن يكون المراد بهم المقتولين ، والرواية المشهورة – كما قال الامام الرازي – ان المقتولين هم المؤمنون ، وروي أيضاً أن المقتولين هم الجبابرة المستكبرون لأنهم لما ألقو المؤمنين في النار عادت النار على الكفرة فأحرقتهم ونجى الله المؤمنين منها سالمين. وإلى هذا القول ذهب الربيع بن انس والواقدي وتأولوا قوله تعالى : فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » .

أي لهم عذاب جهنم في الآخرة ، ولهم عذاب الحريق في الدنيا .

**النار ذات الوقود :**

فأصحاب الاخدود هم أصحاب النار الموقدة ذات اللهيب والاشتعال الشديد. ولها من الوقود ما يجعلها تشتد في الاحراق ويعظم العذاب بها . ويتطاير منها اللهب والشرار مثل نار قلوب هؤلاء الكفرة – التي تشتعل بالحقد والحسد على المؤمنين ولا يشفيها حتى ترى المؤمنين في العذاب الشديد .

**إذ هم عليها قعود :**

فلهم اللعنة ولهم الطرد من رحمة الله إذا أحرقوا المؤمنين . وعذبوهم بالنار وهم قاعدون حولها – يشرفون عليهم . وهم

يتقلبون في العذاب ويحرقون حرقاً بنارهم وهم مع ذلك قعود ينظرون كأنهم ينظرون مشهد سلوى وتسلية لأنفسهم .

**وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود :**

فهؤلاء الجبابرة الكفرة الفجرة لما أمروا باحراق المؤمنين والمؤمنات كانوا حضروا عند تعذيبهم – يشاهدون ما يفعله بهم أتباعهم .

وفي هذا إشارة إلى قسوة قلوب أولئك الطغاة المتجبرين وتمكن الكفر منهم والحقد الدفين على المؤمنين كما في الآية إشارة إلى قوة اصطبار المؤمنين وشدة جلودهم ورباطة جأشهم واستمساكهم بدينهم .

**وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد :**

أي وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجانبه المنيع الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي – الكفار به فهو العزيز الحميد وان خفي سبب ذلك على كثير من الناس ونحن لا نعرف السعادة والفلاح أين هما فقد يكون الحرق لهؤلاء المؤمنين هو منتهى السعادة لهم إذ اختارهم الله إليه شهداء – وخفف عنهم عذاب النار وأبدلهم بها جنة

عرضها السموات والأرض أعـــدت للمتقين .

ثم قال تعالى :

**الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد :**

من تمام صفات الكمـــال . انه تبارك وتعالى المالك لجميع السموات والأرض ، وما فيها ومـــا بينهما . فله وحده الملك والملكوت والعزة والجبروت وهو يشهـد على كل شيء وكفى بالله شهيدا .

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير .

والله تبـارك وتعالى لا تغيب عليه غائبة في الأرض ولا في السماء ولا تخفى عليـــه خافية . يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدُور والله بكل شيء عليم وعلى كل شيء شهيد . وكفى بالله شهيدا .

**حديث أصحاب الاخدود :**

لقد اختلفت الروايات في قصة وحديث أصحاب الاخدود ومن هم :

فعن علي رضي الله عنه : انهم أهل فـــارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم فأمتنع عليه علماؤهم فعمد إلى حفر اخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم واستمر فيهم تحليـــل المحارم إلى اليوم .

وعنه رضي الله عنه : انهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم فغلب مؤمنوهم على كفارهم: ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين . فخدوا لهم الاخاديد وأحرقوهم فيها . وفي رواية ثالثة عن الامام علي رضي الله عنه قـال انهم كانوا أهل الحبشة وأحدهم حبشي وقال العوفي عن ابن عبـــاس « قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود قـــال: ناس من بني إسرائيل خدوا اخدوداً في الأرض ثم أوقـــدوا فيه ناراً ثم أقاموا على ذلك الاخدود رجالاً ونساء – فعرضوا عليها وزعموا أنهم دانيال وأصحابه وهكذا قال الضحاك بن مزاحم .

ولا يأس اختلاف الرواية في مثل هذا الحدث الخطير الذي قد يتكرر على طول الأزمنة وفي مختلف الأمكنة وقد يكون مثل هذا الحادث قـــد وقع في العالم كثيراً وفي عصور مختلفة وأمكنة متباينة وشعوب وقبائل – متعددة ومختلفة كما قال ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في تفسيره .

حدثنا أبي حدثنا أبو اليمان أخبرنا صفوان عن عبد الرحمن بن جبير قال :

كانت الاخدود في اليمن زمان تبع وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد فاتخذوا أتونـــاً وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد وفي العراق في أرض بابل بختنصر الذي صنع الصـــنم وأمر النـــاس أن يسجدوا له فأمتنع دانيال وصاحباه عزريا وميشائيل . فأوقدوا لهم أتونـــاً وألقى فيه الحطب والنار ثم ألقاهما فيه فجعلها الله تعالى عليهما برداً وسلاماً وأنقذهما منهما . وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط فأكلتهم النار .

وقال أسباط عن السدى في قوله تعالى : قتل أصحاب الاخدود » .

قال كانت الاخدود ثلاثة : خد بالعراق ، وخد بالشام ، وخد باليمن . رواه ابن أبي حاتم .

وعن مقاتل قال : كانت الاخدود ثلاثة : واحدة بنجران باليمن ، والأخرى بالشام ، والأخرى بفارس أحرقوا بالنار أما التي بالشام فهو انطنانوس والرومي وأما التي بفارس فهو بختنصر ، وأما التي بأرض العرب — فهو يوسف ذولواس : فأما التي بفارس والشام فلم ينزل الله تعالى فيها قرآنا وأنزل في التي بنجران .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع هو ابن أنس في قوله تعالى :

قتل أصحاب الاخدود . قال :

سمعنا أنهم كانوا قوماً في زمان الفترة . فلما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون .

اعتزلوا إلى قرية سكنوها . وأقاموا على عبادة الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . فكان هذا أمرهم . حتى سمع بهم جبـــار من الجبارين وحدث حديثهم — فأرسل إليهم . فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التي اتخذوا وانهم أبوا عليه وقالوا : لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له فقال لهم :

ان لم تعبدوا هذه الآلهـــة التي عبدت فاني قاتلكم فأبوا عليه فاتخذوا اخدوداً من نار وقال لهم الجبار ووقفهم عليهـــا اختاروا هذه أو الذي نحن فيه فقالوا : هذه أحب إلينا وفيهم نساء وذرية ففزعت الذرية .

فقالوا لهم أي أباؤهم . لا نار من بعد اليوم . فوقعوا فيهـا فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حرها وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين فأحرقهم الله بها ففي ذلك أنزل الله عز وجل : قتل أصحبـــاب الاخدود . النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . ومـــا نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شهيد » .

# حقيقة القصة في حديث
# رسول الله صلى الله عليه وسلم

## وأقوال السلف الصالح

ففي صحيح مسلم عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك : اني قد كبرت فأبعث إليّ غلاماً أعلمه السحر فبعث إليه غلاماً يعلمه فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل فأخذ حجراً فقال: اللهم ان كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فأقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها ومضى الناس .

فأتى الراهب فأخبره فقال الراهب : أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وأنك ستبتلى فان ابتليت فلا تدل عليّ وكان الغلام يبريء الاكمة والابرص ويداوي الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما ها هنالك اجمع ان أنت شفيتني فقال أني لا أشفي أحد إنما يشفي الله فان أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك : من رد عليك بصرك قال ربي :

قال ربك رب غيري ؟ قال ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك : أي بني أقد بلغ من سحرك ما تبريء الاكمة والأبرص وتفعل وتفعل ؟ فقال اني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له :

ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه . ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك . فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه . وإلا فاطرحوه . فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم

اكفينيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقط وجـــاء يمشي إلى الملك : فقال له الملك : ما فعل أصحابك قال : كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا بـــه فأحملوه في قرقورة[1] فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه. فذهبوا به فقال اللهم اكفينيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فوقعوا. وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك ، قال كفانيهم الله .

فقال للملك: أنت لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به . قال وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد . وتصلبني على جذع . ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس . ثم قل بسم الله رب الغلام ثم ارمني . فانـــك إذا فعلت ذلك قتلتني . فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جـذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال : بسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم في صدغـــه . فوضع يـده في صدغه في موضع السهم فمات . فقال الناس : آمنا برب الغـلام آمنا برب الغلام فأتى الملك فقيل له : أرأيت مـا كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس . فـــأمر بالاخدود في أفواه السكك فخـدت وأضرم النيران وقال :من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أو قيل له اقتحم . ففعلوا حتى

---

(١) القرقورة : السفينة الصغيرة .

جاءت إمرأة ومعها صبي لهـا فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام : يا أمه اصبري فإنك على الحق .

أخرجه الترمذي بمعناه . وفيه :

وكان على طريق الغلام راهب في صومعة قال معمر : احسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين . وفيه : ان الدابة التي حبست الناس كانت أسداً وأن الغلام دفن . قال فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب واصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل ، وقال حديث حسن غريب . ورواه الضحاك عن ابن عباس قال :

كان ملك بنجران وفي رعيته رجل له فتى فبعثه إلى ساحر يعلمه السحر ، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الانجيل فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب . فدخل في دين الراهب . فأقبل يوماً فإذا حية عظيمة قطعت على الناس طريقهم ، فأخذ حجراً فقـــال : باسم الله رب السموات والأرض وما بينهما فقتلها . وذكر نحو ما تقدم . وان الملك لمـا رماه بالسهم وقتله قال أهل مملكة الملك : لا إله إلا إله عبـــد الله بن ثامر وكان اسم الغلام - فغضب الملك وأمر فخدت أخاديد وجمع فيها حطب ونار وعرض أهل مملكته عليها ، فمن رجع عن التوحيد تركه ، ومن ثبت على دينه قذفه في النار . وجيء مرضع فقيل لهـــا

أرجعي عن دينك وإلا قذفنـــاك وولدك ــ قال ــ فاشفقت وهمت بالرجوع ، فقال لها الصبي المرضع : يا أمي اثبتي على ما أنت عليه فانما هي غميصة فألقوها وابنها في النار . وروى أبو صالح عن ابن عباس: ان النار ارتفعت من الاخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعاً فأحرقتهم .

وقال الكلبي : هم نصارى نجران أخذوا بها قوماً مؤمنين فخدوا لهم سبعة أخاديد ، طول الاخدود أربعون ذراعـــاً وعرضه إثنا عشر ذراعاً . ثم طرح فيه النفط والحطب ثم عرضوهم عليها فمن ابى قذفوه فيها . وقيل هم قوم من النصارى كانوا بالقسطنطينية زمان قسطنطين .

وقال مقاتل :

أصحاب الاخدود ثلاثة واحد بنجران والثـــاني بالشام والثالث بفارس . أما الذي بالشام فانطانيوس الرومي وأمـــا الذي بفارس فبختنصر . والذي بأرض العرب يوسف بن ذي نواس . فلم ينزل الله في الذي بفارس والشام قرآناً ، وأنزل قرآناً في الذي بنجران . الخ . انتهى : عن القرطبي ( ج ١٩ ص ٢٨٥ ) .

قال العلماء :

اعلم الله عز وجل المؤمنين من هـــذه الأمة في هذه الآية

(قتل أصحاب الاخدود) ما كان يلقاه من وجد قبلهم من الشدائد يؤنسهم بذلك . وذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها ، ليأنسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به . وبذله نفسه في حق اظهار دعوته ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره .

وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار . وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الايمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا عن دينهم . قال الله تبارك وتعالى مخبراً عن لقمان : يا بني أقم الصلاة وامر بالمعروف وأنه عن المنكر وأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور .

وروى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ان من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر . أخرجه الترمذي .

وروى ابن سنجر محمد بن سنجر عن أميمة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كنت اوصي النبي صلى الله عليه وسلم . فأتاه رجل فقال : أوصني . فقال : لا تشرك بالله شيئاً وان قطعت أو حرقت بالنار ... الحديث .

ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي صلى الله عليـــه وسلم بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك . ولا تزال المعركـــة بين الحق والباطل وبين الكفر والايمان . وبين أنصار الله وأعوان الشيطان لا تزال قائمـــة وستبقى إلى يوم الدين تلك سنة الله ولن تجـــد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا . قال تعالى :

( الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا ) .

وما يضير المسلم ان قتل في سبيل الله وهو يعلم أنه سيذهب إلى رب عظيم وإله كريم أعد لاحبائه وأوليائه جنـــة عرضها كعرض السموات والأرض وفيهـا النعيم المقيم بل فيها ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وكل مسلم يتقدم بنفس راضية إلى ميدان الشهادة وهو يردد قوله الله : وعجلت إليك رب لترضى . كما يردد قول الصحابي الشهيد حبيب رضي الله عنه وأرضاه حيث قال :

ولست أبالي إن قتلت مسلمـــا
على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإلـــه وان يشأ
يبارك على أوصـــال جسم ممزع

وهنا السعادة الكبرى للمؤمن الصادق . رزقنا الله وإياكم الشهادة في سبيله ونيل جنته .

**( ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ) .**

بعد أن ذكر الله عز وجل قصة أصحاب الاخدود وبين ما فعله الطغاة المجرمون من الايذاء والتنكيل والتعذيب والحرق بالنار للمؤمنين . وذيل ذلك بما يدل على أنه تعالى لو شاء لمنع بعزته وقدرته وجبروته أولئك الجبابرة عن هؤلاء المؤمنين وأنه تبارك وتعالى أن أمهل هؤلاء الفجرة عن العقاب في الدنيا فهو لم يهملهم ، بل أجل وأخر عقابهم ليوم تشخص فيه الابصار- بعد هذا ذكر الله ما أعد للكفار من العذاب الأليم على كفرهم وبغيهم وظلمهم. وعلى ما اجترمت أيديهم المدنسة بدماء الابرار من الشهداء الابرار والمؤمنين الاطهار والدعاة الأخيار . فقد أعد الله عذاب جهنم للكفار على كفرهم . وعذاب الحريق ببغيهم وظلمهم وحرقهم للمؤمنين بالنار جزاءاً وفاقاً ولا يظلم ربك أحداً . فقال تعالى :

( ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات )

أي حرقوهم وعذبوهم وامتحنوهم بهذا التعذيب حتى يردوهم عن دينهم ويصدوهم عن توحيد الله والإيمان به ويرجعوهم

إلى الوثنيـــة والكفر والشرك بالله ولكنهم ثبتوا على دينهم وصبروا على العذاب مستهينين بكل شيء في سبيل الله . وقد كان الضالون والظالمون من كل أمة يؤذون أهل الحق والدعاة إلى الله . حرصاً على ما ألفوا من الباطل وتشيعاً لما وجدوا عليه أنفسهم وآباءهم الأقربين . على غير هدى وعلى غير بصيرة ولا تفكر ولا إستشارة للعقل السليم ، ولا يزال هذا شأنهم في كل زمان ومكان وسيبقى هـــذا حالهم إلى يوم الدين صراع دائم ومعركة مستمرة بين الحق والباطل وبين أنصار الله واتباع الشيطان . قال تعالى :

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا .

والنصر دائماً لأولياء الله مهما طال الأمد ومهما بعدت الشقة . فالله مـع الصابرين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

وأصل الفتنة : الابتـــلاء والاختبار والامتحان والعرب تقول : فـــتن فلان الدرهم والدينار إذا أدخله الكور لينظر جودته . ودينـــار مفتون . ويسمى الصائغ الفتان . لأنه يختبر الذهب . ويسمى الشيطان الفتان لأنـــه يفتن الناس عن دينهم .

ويصدهم عن ربهم وخالقهم عز وجـــل. وقوله تعالى : ثم لم يتوبوا .

باب عظيم من أبواب الرحمة جعله الله مفتوحاً حتى لأعدائه وقتلة أوليائه وأصفيائه . إذ في هذه الآية الاشارة إلى أنهم لو تابوا وأنابوا إلى الله قبل موتهم لتاب الله عليهم وغفر لهم . إذ الاسلام يجب ما قبله والتوبة تغسل الحوبة . ما أعظم هذا الإله. وما أكرمه وما أشد حلمه عز وجل من إله حكيم يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم .

قال الحسن البصري رحمه الله : أنظروا إلى هـــذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

وقوله لم يتوبوا : أي يقلعوا عمـــا فعلوا من قبيح صنيعهم وسوء عملهم . ويندموا على مـــا أسلفوا ومثل هذا الموقف العظيم يقف الرب العظيم والإله الكريم مع كفار قريش المعتدين الظالمين فيخاطب الله نبيه وحبيبه محمـــد صلى الله عليه وسلم قائلا له :

( قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ) هذا هو أسير الاسلام وتلك سماحته وعفوه حتى مع ألد أعدائه وأشد خصومه فإذا لم يندموا على ما فعلوا ولم يتوبوا عن ما اجترموا من البغي والاثم بل مضوا في ضلالتهم سادرين ، وفي جرمهم متلبسين وعلى كفرهم ثابتين .

**( فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ) :**

فلهم عذاب جهنم لكفرهم ، ولهم عذاب الحريق في الدنيا لاحراقهم المؤمنين بالنار ، وقد ارتفعت النار من الاخدود فأحرقتهم ونجا المؤمنون . وقيل لهم في الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أحرقوا المؤمنين. وقيل لهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . والحريق اسم من اسماء جهنم كالسعير . والنار درجات وأنواع ولها أسماء وكأنهم يعذبون بالزمهرير في جهنم ، ثم يعذبون بعذاب الحريق فالأول عذاب ببردها والثاني عذاب بحرها .

وفي جهنم أجارنا الله منها وإياكم – أنواع العذاب سوى الاحراق : مثل الزقوم والغسلين والمقامع من الحديد ، والطعام ذو الغصة والعذاب الأليم ثم الاحراق بالنار. والله تبارك وتعالى نص على الحريق وهو مفهوم من عذاب جهنم حيثما ذكرت ولكنه عز وجل ينطق به هنا وينص عليه ليكون مقابلا للحريق في الاخدود وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث ولكن أين حريق من حريق في شدته ومدته كما قال المفسر الشهيد سيد قطب رحمه الله .

وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق ، وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق ، وحريق الدنيا لحظات وتنتهي وحريق الآخرة آباد ولا يعلمها إلا الله. ومع حريق الدنيا رضي الله عن المؤمنين

وانتصار لذلك المعنى الانساني الكريم . ومـــع حريق الآخرة غضب الله وانتكاس الهابط الذليل .

ان جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا لابثين فيها أحقاباً . لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً . إلا حميماً وغساقـــاً جزاءاً وفاقاً . أنها لظى نزاعة للشوي تدعو من أدبر وتولى .

انهـــا ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ويل يومئذ للمكذبين « أجارنا الله والمسلمين أجمعـــين من عذاب جهنم ان عذابها كان غراماً انهاساءت مستقراً ومقاما » .

**( ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ) :**

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى ما أعد لأعدائه وأعـــداء أوليائه من النكال والعذاب الأليم بعذاب جهنم وعذاب الحريق. أرشد هنا تبارك وتعالى إلى ما يكون لأوليائه من النعيم المقيم في جنات معروشات تجري من تحتهـا الأنهار . ليكون ذلك التقابل بين هؤلاء وهؤلاء أنكى لأعداء الله وأشد في غيظهم وأبعث للأسف والاسى والحزن في نفوسهم .

وفي هذه الآية يتمثل رضى الله وانعامـــه عز وجل على الذين آمنوا وهم المؤمنون الذين آمنوا وصدقوا بالله على أنه تعالى واهب الوجود ، والقادر على كل شيء والعالم بالسر واخفى ،

والمحيط بخفايا النفوس والعلم بذات الصدور وهوصاحب الفضل وصاحب الطول لا حول لأحد عنده ولا قوه إليه يرجع الأمر كله . كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون . وآمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم على أنـــه خاتم الرسل وامامهم وأنه المبلغ عن ربه كل شيء وأنه عبد الله ورسوله إلى الناس كافة بشيراً ونـــذيراً « وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى » .

وآمنوا بملائكة الله وكتب الله ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . ثم لم يرتابوا في شيء بل كان إيمانهم عن عقيدة راسخة ويقين ثابت كامل. وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وعملوا الصالحات التي أمرت شريعة الله وانتهوا عن السيئات فهؤلاء لهم جنـــات تجري من تحتها الأنهار وهذه هي النجاة الحقيقية وذلك هو الفوز الكبـــير العظيم والفوز والنجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز فكيف إذا ارتقت درجات الفائزين حتى يدخلوا جنات تجري من تحتهـا الأنهار من ماء غير آسن ولبن لم يتغير طعمـه ومن خمرة لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ذلك الفوز الذي لا فوز بعده ، النعيم المقيم الذي لا نعيم بعـــده إلا النظر إلى وجه ذي الجلال والاكرام وهناك السعادة الكبرى جعلنا الله وإياكم من أهلها آمين يا رب العالمين .

**( ان بطش ربك لشديد . وانه هو يبدىء ويعيد : وهو**

الغفور الودود . ذو العرش المجيد فعال لما يريد ) :

بعد أن ذكر الله عز وجل وعيده لأولئك الكفرة الفجرة الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأرادوا أن يصدوهم عن دينهم وعبادة ربهم الواحد الأحد الفرد الصمد .

ثم ذكر تبارك وتعالى وعده الصادق للذين آمنوا وعملوا الصالحات من عباده وأصفيائه . وخلصائه ووصف ما أعد لهم من الثواب العظيم والفوز الكبير في جنات معروشات أعدت للمتقين . بعد ذلك وهذا أردف ذلك كله بما يدل على اتمام قدرته على ذلك ومطلق ارادته ومشيئته ليكون ذلك بمثابة توكيد لما سبق من الوعيد والوعد فالملك كما قيل لا يعظم سلطانه ولا تتم هيبته في النفوس إلا بأمرين : —

١ — الجود والكرم الغامر ، والانعام العام الكامل . وبذا يرجى خيره ويؤمل نفعه ويتوجه إليه الراجون وينحاز إليا الراغبون .

٢ — القدرة المطلقة والهيمنة الشاملة الكاملة على كل شيء والتمكين في جميع الأمور وبذلك يهاب جانبه ويخشى أمره وتعم سطوته وتظهر قوته . وإلى هذين الأمرين أشار القرآن في هذه السورة بقوله تعالى فيما سلف : العزيز الحميد .

وهنـــا زاد الأمر بياناً وايضاحاً بقوله : ان بطش ربك لشديد .

والبطش : الأخذ بصولة وعنف وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم وهو بطشه عز وجل بالجبابرة والظلمة وأخذه سبحانه إياهم بالعذاب والانتقام . وهو كقوله تعالى : « وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة ان أخـذه أليم شديد .

قال المبرد : « ان بطش ربك » جواب القسم ، المعـــنى ( والسماء ذات البروج ان بطش ربك ) . وما بينهما معترض مؤكد للقسم .

قال المفسر الشهيد سيـــد قطب رحمه الله في ظلال القرآن واظهار حقيقة البطش وشدته في هذا الموضع هو الذي يناسب ما مر في الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذي يحسبه أصحابه ويحسبه الناس في الأرض كبيراً شديداً فالبطش الشديد هو بطش الجبـــار . الذي له ملك السموات والأرض . لا بطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الأرض محدودة في رقعة من الزمان محدودة .

ويظهر التعبير العلاقة بين المخاطب وهو الرسول صلى الله عليه وسلم والقائل وهو الله عز وجل وهو بقوله له ( ان بطش ربك ) ربك الذي تنتسب إلى ربوبيته ، وسنـــدك الذي تركن

إلى معونته.. ولهذه النسبة قيمتها في هذا المجال الذي يبطش فيه الفجار بالمؤمنين . ج – ٣٠ ص ١١٤ .

قال الشيخ محمد عبده في تفسيره رحمه الله لجزء عم :

« ان بطش ربك » الخ تعظيم لأمر الله جل ذكره بما فيه وعيد لاعدائه ، وتعزية لأوليائه ، فذكر شدة بطشه ليرهب قريشاً ومن معها . ويعزي النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه . وبرهن على سعة القدرة بقوله ( انه هو الذي يبدأ الخلق وهو الذي يعيده . وهو في كل يوم يبدىء خلقاً من نبات وحيوان وغيرهما ، ثم إذا هلك اعاد الله خلقه مرة أخرى ، ثم هو يعيد الناس في اليوم الآخر على النحو الذي يعلمه ) وهذا معنى قوله:

**( انه هو يبدىء ويعيد ) :**

عند أكثر المفسرين يبدىء الله ويعيد الخلق ، يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم عند البعث والنشور .

وقال ابن عباس : « يبدىء لهم عذاب الحريق في الدنيا ثم يعيده عليهم في الآخرة» وهذا اختيار الامام الطبري رحمه الله.

وقال ابن زيد والضحاك « انه عز وجل هو يبدىء الخلق بالانشاء وهو سبحانه يعيده بالحشر يوم القيامة» وقيل أنه تعالى: يبدىء كل ما يبدأ ويعيد كل ما يعيد من غير دخل لأحد في

شيء منها . ومن كان كذلك كان بطشه في غـــاية الشدة . أو يبدىء البطش بالكفرة في الدنيا ثم يعيده عليهم في الآخرة . فالعذاب لهم في الدنيا ويعيده عليهم ناراً حامية بحيث تأكلهم النار حتى يصيروا فحما . ثم يعيدهم الله خلقاً جديداً حتى يعيد العذاب . وهـــذا مصداق قوله تعالى في شأن الكفار : كلما نضجت جلودهم بدلنـــاهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » .

بعد هذه الآية ذكر الله عز وجل خمسة أوصاف من صفات الرحمة والفضل والجلال والكمال فقال :

١ – وهو الغفور : لمن يشاء من المؤمنين ولمن تاب وأناب من عبـــاده الصالحين . ولكل من شاء الله أن يغفر له فعادته المغفرة وشأنه الفضل والعفو الاحسان .

٢ – الودود : أي المحب لأوليائه . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : كما يود أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة . وعنه أيضاً « الودود» أي المتودد إلى أوليائه بالمغفرة . وقيل الودود بمعنى الموجود . أي الذي يوده عباده الصالحون ويحبونه .

يقول المفسر الشهيد سيد قطب في ظلال القرآن :

« أما الود : فيتصل بموقف المؤمنين الذين اختاروا ربهم على كل شيء . وهو الايناس اللطيف الحلو الكريم . حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحبونـــه إلى مرتبة . يتحرج القلم من

وصفها لولا أن فضل الله يجود بها.. مرتبة الصداقة .. الصداقة بين الرب والعبد ودرجة الود من الله لاوليائه وأحبائه المقربين. فماذا تكون الحياة التي ضحوا بها وهي ذاهبة؟ وماذا يكون العذاب الذي احتملوه وهو موقوت ؟ ماذا يكون هذا الجانب قطرة من هذا الود الحلو ؟ وإلى جانب لمحة من هذا لا يناسب الحبيب .

ان عبيداً من رقيق هذه الأرض . عبيد الواحد من البشر ، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه أو لمحة رضاء تبدو في وجهه .. وهو عبد وهم عبيد .. فكيف بعباد الله .. الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل .

آنسك الله في وحشة القبر يا سيد قطب وجمعك وحشرك وإيانا والمسلمين من أوليائه وأصفيائه وأحبائه واودّائه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا .

وهو عز وجل :

٣ – العرش : وهو الله تبارك وتعالى ذو الملك والسلطان والعظمة والقدرة المطلقة النافذة والحكم الذي لا يرد ، وهو عز وجل صاحب العرش العظيم على جميع الخلائق الذي استوى عليه ربنا، استواء يليق بذاته وجلال صفاته. فالله سبحانه وتعالى عظيم في ذاته وصفاته قدير تام القدرة حي أبدي سرمدي كامل

الحكمة . خالق العرش الذي هو أعظم المخلوقات . صاحب الملك والملكوت ورب السموات والأرض وما بينهما وحده لا شريك له .

« فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم ».

وروى في حديث شريف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

ما لسموات السبع والارضين السبع وما فيهن وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وان الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة« الله لا إله هو رب العرش العظيم .

٤ — المجيد : العظيم في ذاته وصفاته فانه تعالى واجب الوجود ، وواهب الحياة والوجود . تام القدرة عظيم المغفرة جليل الفضل والاحسان .

أكثر القراء ذهب إلى القراءة برفع « المجيد » على أن الله سبحانه هو الموصوف بالمجد ولان المجيد لم يسمع في غير صفة الله تعالى وان سمع الماجد . ومن قرأ بالكسر والمجد من صفات التعالى والجلال وذلك لا يليق إلا بالله سبحانه . « المجيد » جعله صفة للعرش وروى عن ابن عباس رضي الله عنه انه قال : يريد العرش وحسنه . ويؤيده ان العرش وصف بالكرم في قوله تعالى « رب العرش الكريم » . فجاز ايضاً ان يوصف بالمجد لان معناه الكمال والعلو . والرفعة .

والعرش أكمل شيء واعلاه واجمعه لصفات الحسن والكمال كما قبل ذلك .

قال الامام الرازي رحمه الله في تفسيره : عمن قرأ بالكسر :

وهؤلاء . قالوا القرآن دل على انه يجوز وصف غـــير الله بالمجيد حين قال : « بل هو قرآن مجيد » ورأينا ان الله تعالى وصف العرش بانه كريم فلا يبعد ايضاً ان يصفه بانه مجيد ، ثم قالوا مجد الله عظمته بحسب الوجوب الذاتي وكمال القدرة والحكمة والعلم ، وعظمة العرش علوه في الجهة وعظمة مقداره وحسن صورته وتركيبه ، فانه قيـــل العرش احسن الاجسام تركيباً وصورة انتهى ج ٣١ ص ١٢٤ .

**فعال لما يريد :**

فعال من صيـــغ المبالغة ومعناه : جلت قدرته كثير الفعل لما يريده فلا يريد شيئاً الا فعله طبقاً لارداته ووفق مشيئته فهو عز وجل مطلق الارادة يفعل ما يشاء ويختار واذا اراد اهلاك الجاحدين الظالمين . ونصر اهل الحق الصادقين المجاهدين لم يعجزه ذلك ، واين هؤلاء الطغـــاة ممن سبقهم من الفراعنة الشداد والكفرة الفجرة اصحاب الشرك والعناد . ومع ذلك فقد اخذهم الله عز وجل اخذ عزيز مقتدر .

قال القفال فيما نقله الامام الرازي رحمه الله : فعال لما يريد على ما يراه لا يعترض عليه معترض ولا يغلبه غالب فهو يدخل

أولياءه الجنة لا يمنعه منه مانع ويدخل اعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر .

ويمهل العصاة على ما يشاء الى ان يجازيهم ويعاجل بعضهم بالعقوبة اذا شاء ويعذب من يشاء منهم في الدنيا والآخرة يفعل من هذه الاشياء ومن غيرها ما يريد .

فهو عز وجل مطلق المشيئة والارادة يريد مرة ان ينتصر المؤمنون به في هذه الارض لحكمة يريدها ، ويريد مرة ان ينتصر الايمان على الفتنة والاسلام على الجاهلية ويريد مرة ان يأخذ الجبارين في الارض ويريد مرة أخرى ان يستدرجهم ويمهلهم لليوم الموعود كل ذلك – وغيره كذلك له سبحانه وتعالى له المشيئة التامة والارادة الحازمة والأمر المطلق النافذ على كل شيء وفي كل شيء سبحانه من اله عظيم فعال لما يريد ..

( هل اتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط ، بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ ) .

بعد ان ذكر الله سبحانه وتعالى قصة اصحاب الاخدود وبين حالهم وما اصابهم من الاذى على ايدي الكفار ، وما نقموا منهم الا لانهم آمنوا بالله العزيز الحميد .

اردف ذلك هنا ببيان ان حال الكفار في كل عصر وفي كل زمان ومكان ، وشأنهم مع كل نبي وشيعته جار على هذا النهج

فهم دائماً في معركة مع المؤمنين يعادونهم ويحاربونهم ويقفون في طريق دعوتهم ولم يرسل الله نبياً الا لقي من قومه مثل ما لقي هؤلاء من اقوامهم .

والغرض من هذا كله تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام وشد عزائمهم وبعث الهمة فيهم ليتذرعوا بالصبر والثبات على ما هم عليه من الحق المبين والصراط المستقيم .

وليعلموا كذلك بان هؤلاء الكفار من قريش وغيرهم الذين يؤذونهم فسوف يصيبهم ما اصاب من قبلهم من الجنود وفرعون وثمود . والله لهم بالمرصاد يأخذهم كما أخذ من قبلهم من الكفار والله غالب على امره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

**هل اتاك حديث الجنود فرعون وثمود :**

أي هل اتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لانبيائهم ورسلهم . وهل بلغك ما احل الله بهم من البأس وانزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد وهذا تقرير لقوله تعالى : ( ان بطش ربك لشديد ) اي : اذا اخذ الظالم اخذه اخـــذاً اليماً شديداً ، اخذ عزيز مقتدر .

قال ابن ابي حاتم حدثنا ابي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا ابو بكر بن عياش عن ابي اسحاق عن عمر بن ميمون

قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة تقرأ : ( هل اتاك حديث الجنود ) فقام يستمع فقال : « نعم قد جاءني » .

قال الشيخ محمد عبده في تفسيره لجزء عم :

هل اتاك حديث الجنود : أي هل بلغك قصص اولئك الجنود واولي البأس من الاشداء الاقوياء مثل فرعون وثمود وابطالها فقد كانوا اشد بأساً واعظم قوة من قومك ومع ذلك فقد اخذهم الله بذنوبهم وهكذا كل من تعلق بالباطل سقط به الباطل في الدمار . وثمود قبيلة عظيمة من بائدة العرب لا يعرف من اخبارها على الحقيقة الا ما قصه الله علينا منها ، وقد ارسل الله اليها نبياً صالحاً فكفرت به واستمرت في تمردها على الحق والعدل حتى اهلكها الله بظلمها ، فقوله هل اتاك حديث الجنود استئناف قوله في ذكر عبر ماضية لو نظر فيها العاقل لاهتدى الى سنن الله في خلقه . ولكن انّى لهم ذلك وقد غرقوا في الضلال ؟ ولذلك فهم في تكذيب وعناد واصرار على الكفر والضلال . ولقد ذكر الله سبحانه من المتأخرين فرعون ومن المتقدمين ثمود والمقصود كما قلنا والله أعلم : بيان ان حال المؤمنين مع الكفار في جميع الازمنة والعصور مستمرة على هذا النهج وسائرة ودائرة في هذا الفلك . معركة دائمة دائبة بين الحق والباطل وبين جند الله وجنود إبليس لعنه الله . وهذا هو المراد من قوله تعالى : ( بل الذين كفروا في تكذيب ) .

أي أن هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بك ولا يصدقونك فهم في تكذيب من قبلهم ممن كفروا بالله وكذبوا رسله وأنبياءه عز وجل وقد خص الله فرعون وثمود لأن ثمود في بلاد العرب وقصتهم عندهم مشهورة معروفة وأنهم عقروا الناقة . التي جعلها الله لهم آية ، فدمر بلادهم وأهلكهم ولم يترك لهم من باقية والعرب يمرون على ديارهم في أسفارهم ويسمعون أخبارهم . وأما فرعون فأمره مشهور معروف كذلك عند أهل الكتاب وغيرهم وان الله أغرقه في اليم هو وقومه وأذاقه الوبال والنكال في الدنيا إذ أغرقه وفي الآخرة أحرقه .

وبهذين المثلين دل سبحانه على أنه القدير على اهلاك امثالهما ممن يكذب رسل الله أو يقف في طريق دعوة الله من العتاة البغاة والظالمين والكافرين والمنافقين وغيرهم من جنود الشيطان وأعداء الرحمن .

ثم صلى الله تبارك وتعالى رسوله من وجه آخر حيث قال :

**( والله من ورائهم محيط ) :**

الحاط به كالمحصور والله سبحانه وتعالى محيط بالكافرين والمنافقين والمشركين وهم جميعاً في قبضته تبارك وتعالى لا يحدون مهرباً ، ولا يستطيعون الفرار إذا أرادوا والله قادر على أن ينزل بهم من العذاب ما أنزله بفرعون وثمود وهامان وقارون ..

فـــلا تجزع من تكذيبهم واستمرارهم على الكفر والعناد فلن يفوتونني إذا أردت إهلاكهم والانتقام منهم وأنا العلـــيم بهم ، المطلع على سرهم وجهرهم فانا اجازيهم بما كانوا يعملون ولن يفلتوا من يدي . وأنا المحيط بكل شيء والقدير على كل شيء والعليم بكل شيء .

قال الالوسي رحمه الله في هذه الآية :

وذكر عصـــام الدين أن في ذلك تعريضاً وتوبيخاً للكفار بأنهم نبذوا الله سبحانـــه وراء ظهورهم وأقبلوا على الهوى والشهوات بكليتهم ..

وذكر الامام الرازي رحمه الله في تفسيره معنى آخر لهذه الآية . وهو أن يكون المراد من هذه الإحاطة قرب هلاكهم كقوله تعالى : وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بهـــا . « وقوله وإذ قلنا ان ربك أحاط بالناس » وقوله : وظنوا أنهم أحيط بهم فهذا كله عبـارة عن مشارفة الهلاك . أي فهؤلاء في تكذيبهم قد شارفوا الهلاك والله محيط بهم قادر على اهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم إياك فلا تجزع من تكذيبهم وعنادهم بيدي الأمر واليّ المصير .

**( بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ) :**

بهذه الآية الكريمـــة التي ختمت بها سورة البروج رد الله

سبحانه وتعالى على الكفار تماديهم في تكذيب القرآن وأدعاءهم أنه أساطير الاولين فقال : بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ . وهذه رد لكفرهم وابطال لتكذيبهم وتحقيق للحق . فهـــذا الكتاب الذي كذبوا به كتاب شريف غاية الشرف عالي المقام بين الكتب الآ لهية. متفرد في النظم والمعنى محفوظ من التحريف مصون من التغيير والتبديل .

قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله لا يأتون بمثـــله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . فلا يحق تكذيبه والكفر به وهو كتاب الله الخالد ودستوره الماجد وقـــد حفظه الله في الأولين والآخرين وسيحفظه إلى يوم الدين .

( انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ) .

فهو محفوظ بحفظ الله من التغيير والتبديل والزيادة والنقص.

( في لوح محفوظ ) .

فهو مكتوب في لوح وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه . وقيل : هو أم الكتاب ومنه انتسخ القرآن وكتب .

وقيل : اللوح المحفوظ الذي فيه أصناف الخلق والخليقة ، وبيان أمورهم ، وذكر آجالهم وارزاقهم وأعمالهم ، والأقضية النافذة فيهم ، ومآ ل عواقب أمورهم ، وهو ام الكتاب .

وقـــال ابن عباس رضي الله عنه فيما نقله الامام القرطبي رحمه الله .

أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ : إني أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد رسولي من استسلم لقضائي وصبر على بلائي وشكر نعمائي كتبته صديقاً وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي فيتخذ إلهاً سواي .

وكتب الحجاج إلى محمد بن الحنيفة رضي الله عنه يتوعده ، فكتب إليه ابن الحنيفة :

« بلغني أن لله تعالى في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ ، يعز ويذل ويبتلي ويفرج وينعل مـــا يريد ، فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك فتشتغل بها ولا تتفرغ » .

وقال بعض المفسرين : اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرءونه .

وقرأ نافع في لوح محفوظ بالرفع نعتاً للقرآن أي بل هو قرآن مجيد في لوح . والباقون بالجر نعتاً للوح .

قال القرطبي رحمه الله : والقراء متفقون على فتح اللام من لوح . إلا ما روي عن يحيى بن يعمر فانه قرأ في ( لُوح ) بضم اللام أي أنه يلوح ، وهو ذو نور وعلو وشرف .

قال الزمخشري : واللوح الهواء . يعـــني اللوح فوق السماء

السابعة الذي فيه اللوح .

واللوح المحفوظ شيء أخبرنا الله عز وجل به وأنه أودعه كتابه ولكنه لم يعرفنا حقيقته وكنهه فعلينا أن نؤمن به كما جاء به كتاب الله وليس علينا البحث عن دقائقه وتفاصيله وما وما وراء ذلك مما لم يأت به خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم. آمنا به كل من عند ربنا . والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

بهذا ننتهي من سورة البروج والله أعلم بمراده .

# سورة الطارق

## وهي مكية. وآياتها سبع عشرة آية

### نزلت بعد سورة البلد

قال الله تبارك وتعالى :

( والسماء ) والطارق ، ومـــا أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب ، ان كل نفس لما عليها حافظ فلينظر الانسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، انـه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر ، فماله من قوة ولا ناصر .

والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع ، انه لقول فصل، وما هو بالهزل ، أنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ) .

### مناسبتها لما قبلها

وضعت سورة الطارق بعد سورة البروج حيث فيها قصة

اصحاب الاخدود ، وفيها حديث الجنود فرعون وثمود ، وقد أقسم الله فيها بالسماء ذات البروج .

وفي مستهل هذه السورة أقسم ربنا تبارك وتعالى بالسماء والطارق وهو النجم الثاقب والجواب أن النفوس لم تترك سدى ولم ترسل مهملة ، بل قد تكفل بها من يحفظها ، ويحصي أعمالها. وهو الله الخالق الباري المصور الذي له الأسماء الحسنى وفي هذا وعيد للكافرين وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه . كما في السورة السابقة حيث توعد الله أصحاب الاخدود بعد أن ذكر ما صنعوا بالمؤمنين .

وفي السورة السابقة ذكر الله عز وجل تكذيب الكفار للقرآن وهنا وصف الله سبحانه القرآن بأنه القول الفصل وفيه رد على هؤلاء المكذبين الذين ظنوا أنهم سيصدون النبي عن دعوته بتكذيبهم له وإيذائهم له ولاصحابه . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في البلد الحرام حلالاً يعتدي عليه أهلها ويؤذيه أعداؤه من بيوت قريش. فنزلت سورة الطارق في تمجيد القرآن الكريم بصدق أخباره وان الله يحفظ نبيه ويعصمه ويدفع عنه كيد أعدائه .

أنهم يكيدون كيدا واكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا . والمناسبة بين السورتين ظاهرة بينة واضحة .

## أسباب النزول

ذكر في أسباب نزول سورة الطارق ما روي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا معَ أبي طالب ، فانحط نجم فامتلأت الأرض نوراً ففزع أبو طالب وقال : أي شيء هذا ؟ فقال هذا نجم رمي به وهو آية من آيات الله فعجب أبو طالب ونزل : والسماء والطارق .

## تلاوتها بالطائف وفي الصلاة

ذكر الامام ابن كثير في تفسيره رحمه الله تعالى :

قال عبد الله بن الامام أحمد حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن محمد قال عبد الله وسمعته أنا منه حدثنا مروان بن معاوية الفزاري عن عبد الرحمن الطائفي عن عبد الرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه أنه أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصى حين أتاهم يبتغي عندهم النصرة فسمعته يقول : والسماء والطارق . حتى ختمها قال : فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك ثم قرأتها في الإسلام . قال فدعتني ثقيف فقالوا: ما سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا لو

كنا نعلم ما يقول حقاً لأتبعناه .

وورد عن محارب بن دثار عن جابر قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : افتان أنت معاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق والشمس وضحاها ونحوها ؟

## التفسير

**والسماء والطارق وما ادراك ما الطارق النجم الثاقب .**

في بداية هذه السورة الكريمة قَسَمان بالسماء وقسم بالطارق، والطارق هو النجم كما بينه الله سبحانه: وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب .

والله سبحانه وتعالى أكثر في القرآن من الحلف بالسماء وبالشمس وبالقمر وبالليل وبالنجوم لأن في أحوالها وأشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها من عجائب وغرائب . وكلها دلائل لمن يتدبر ويتفكر في ملكوت السموات والأرض . فيجزم بأن لها خالقاً عظيماً مدبراً حكيماً يقوم – بشؤونها ويحصي أمرها، ويسير أفلاكها لا يشركه في هذا الابداع سواه ، فهو الخالق الفرد والصانع الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين .

والسماء هو كل ما علانا . فكأنه تبارك وتعالى يقسم بالعالم العلوي وما فيه . ثم خصص تبارك وتعالى بعض ما في ذلك العالم السماوي وأقسم بالطارق . والطارق هو كل مـــا طرقك وأتاك ليلاً . ثم أراد الله عز وجل أن يبين ما قصد منه بما يدل على تفخيم أمره وتعظيم شأنه فقال :

( وما أدراك ما الطارق ) :

وهو استفهام يقصد به في مثل هذا المقـام تعظيم المستفهم عنه كأنه في فخامة شأنه مما لا يتمكن احاطة الادراك فيقال وما يدريك ما هو كذا ؟

قال سفيان بن عيينة : كل شيء في القرآن ما أدراك فقـــد أخبر الرسول به ، وكل شيء فيه ما يدريك لم يخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم كقوله : وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً .

قال قتادة وغـيره : انما سمي النجم طارقاً لأنـه انما يرى بالليل ويختفي بالنهار ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح نهى رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن يطرق الرجل المسافر أهله ليلاً أي يأتيهم فجأة ليـلاً . وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء . أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن .

والعرب تسمي كل قاصد في الليل طارقاً . طرق فلان إذا جاء بليل . وقد طرق يطرق طروقاً فهو طارق .

قال الشاعر :

يا راقـد الليل مسروراً بأوله
ان الحوادث قد يطرقن اسحارا

لا تفرحن بليل طاب أولـــه
فرب آخر ليل أجج النـــارا

ثم فسر ربنا هذا الطارق فقال : **( النجم الثاقب )** فالله تبارك وتعالى لا يقسم هنا بكل نجم وبكل طارق من الكواكب بل أقسم عز وجل بطارق معين هو النجم المضيء الذي يثقب الظلام بضوئه . فكأن الظلام جلد أسود والنجم يثقبه . وهذا النجم نهتدي به في ظلمات البر والبحر ونقف به على أوقات الأمطار وغيرها من أحوال يحتاج إليها الانسان في معاشه وهو الثريا عند جمهرة من العلماء . ويرى الحسن أن المراد كل كوكب لأن له ضوءاً ثاقباً لا محالة .

وانما عظم الله أمر هذا الكوكب لما فيه من الهداية الحسية والمعنوية والشؤون الأخرى التي يعلمها الله . ويعلمها الراسخون في علوم اسراره الكونية وأسراره عز وجل في خليقته وهو

العلي الكبير . والثاقب : المضيء ومنه : شهاب ثاقب. والعرب تقول : أثقب نارك . أي أضئها . قال الشاعر :

اذاع به في الناس حتى كأنه
بعلياء نارٍ أوقدت بثقوب

والثقوب ما تشعل به النار من دقاق العيدان . وقال مجاهد: الثاقب المتوهج والاكثرون على أنه الطارق والثاقب اسم جنس أريد به العموم . أي جمع النجوم .

**( ان كل نفس لما عليها حافظ ) :**

هذا هو جواب الذي ورد في أول السورة فالله تبارك وتعالى يقسم بالسماء وبالنجم الثاقب فيها : ان كل نفس عليها من الله رقيب وحفيظ يحفظ عليها رزقها وأجلها وعملها من خير أو شر يحصي عليها ويحفظ عنها وهو موكل بها بأمر الله. ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار في الانسان وهي التي يناط بها العمل والجزاء .

يقول المفسر الشهيد سيد قطب رحمة الله .

« ليست هنالك فوضى إذن ! والناس ليسوا مطلقين في الأرض هكذا بلا حارس . ولا مهملين في شعابها بلا حافظ ولا

متروكين يفعلون كيف شاؤوا بـــلا رقيب . انما هو الاحصاء الدقيق المباشر، والحساب المبني على هذا الاحصاء الدقيق المباشر ويلقي النص ايحاءه الرهيب حيث تحس النفس انها ليست أبداً في خلوة – وان خلت – فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب وتنخفي عن كل عين وتأمن كل طارق . هنالك الحافظ الذي يشق كل غطاء وينفذ إلى كل مستور . كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليل الساتر .. وصنعة الله واحدة متناسقة في الأنفس وفي الآفاق .

وقال قتادة في هذه الآية الكريمة : ان كل نفس لما عليهـــا حافظ .

حفظة يحفظون عليك رزقك وعملك وأجلك . وعنه أيضاً قال : قرينه يحفظ عليه عمله من خير أو شر . وقيل المعنى : ان كل نفس الا عليها حافظ يحفظها من الآفات حتى يسلمها إلى القدر . قال الفراء : الحافظ من الله يحفظها حتى يسلمهـــا إلى المقادير .

وقال أبو أمامة كما نقله الامام القرطبي في تفسيره قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه ما لم يقدر عليه . من ذلك البصر سبعـة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب . ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين .

وقراءة ابن عامر وعاصم وحمزة « لمّا » بالتشديد للميم : أي ما كل نفس إلا عليها حافظ وهي لغة هذيل .

وقرأ الباقون بتخفيف « الميم » « لما » وحينذاك تكون ما زائدة مؤكدة والمعنى : ان كل نفس لعليها حافظ .

وقيل : الحافظ هو الله سبحانه ، فلولا حفظه لها لم تبق لحظة . ولا تدوم ساعة . فالله يحفظ يحفظها ويحفظ كل شيء وهو على كل شيء قدير : فالله خير حافظاً وهو ارحم الراحمين» ونظير هذه الآية من كتاب قوله تعالى : له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله .

قوله تعالى « وان عليكم حافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » .

وقوله تعالى : ويرسل عليكم حفظة . وقوله : عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد .

**( فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ) :**

لقد أقسم ربنا عز وجل على ان لكل نفس حافظاً يراقبها ويعد عليها أعمالها ويسجل رزقها ، وأجلها وحينئذ يحق لكل أحد أن يجتهد . ويسعى في تحصيل أهم المهمات ، وقد تطابقت

الشرائع والعقول على أن أهم المهمات معرفة المبدأ ومعرفة المعاد . وأتفقوا على ان معرفة المبدأ مقدمة معرفة المعاد فلهذا السبب بدأ الله تعالى بعد ذلك بما يدل على المبدأ – الرازي –

فقال : فلينظر الانسان مم خلق ؟

وهذا بعـــد أن بين سبحانه أن الانسان لم يترك سدى ولم يخلق عبثاً . وقد نبهه إلى الدليل الواضح البـــين على صحة معاده ، وأنه لا بد أن يرجع إلى ربه ليجازيه على مـــا عمل ، فذكره بنفسه ، ولفت نظره إلى كيفية خلقه ومنشئه . وأنه مخلوق من الماء الدافق الذي لا تصوير فيه ولا تقدير للآلات التي يظهر فيها عمل الحياة كالاعضاء وغيرها . ثم أنشأه خلقاً كاملاً مملوءاً بالحياة والعقل والادراك . قادراً على القيام بالخلافـــة في الأرض . فالذي خلقه على هذه الأوضاع قادر أن يعيده إلى الحياة في يوم تتكشف فيه المستورات وتبين الخفايا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه وليس للانسان حينئذ قوة يدفع بها عن نفسه ما يحل به من العذاب . ولا ناصر يعينه على الخلاص مما سيصيبه من الآلام والأحزان .

**( فلينظر الانسان مم خلق ) :**

في هذه الآية أمر وتوصية للانسان كل انسان من بني آدم .

أن ينظر في أول أمره وسنته الأولى ، وبداية نشأته . حتى يعلم أن من أنشأه قادر على اعادته وجزائه . فيعمل ليوم الاعـادة والجزاء ولا يملي على حافظه من الملائكة إلا ما يسره في عاقبة أمره . وآخرته التي لا بد أن يراها ، ويلقاها .

ثم أجاب الرب تبارك وتعالى عن هذا السؤال بقوله :

**( خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ) :**

من ماء دافق : أي من المني . والدافق هو المندفق بشدة . وأراد به مائين : ماء الرجل وماء المرأة لأن الانسان مخلوق منهما لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما واختلاطهما معاً .

وهذا الماء يخرج من بين الصلب أي الظهر ، والترائب أي صلب الرجل وترائب المرأة وهو صدرها .

قال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس : يخرج من الصلب والترائب « صلب الرجل وترائب المرأة أصفر رقيق لا يكون الولد إلا منهما .

وتربية المرأة موضع القلادة في صدرها . وعن مجـاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر وعنه أيضاً : الترائب أسفل من التراقي .

وقال الليث بن سعد عن معمر بن أبي حبيبة المدني أنه بلغه

في قوله عز وجل : يخرج من بين الصلب والترائب « قال : هو عصارة القلب من هناك يكون الولد .

وهذا المعنى يؤيده واقع الحال . فالأولاد كأنهم قطع من الأكباد .

وإنما أولادنا بيننا .. أكبادنا تمشي على الأرض .

وخلاصة المعنى : أن الولد يتكون بقدرة الله من مني مدفوق من الرجل فيه جرثومة حية دقيقة لا ترى بالعين المجردة ولا بالمجهر فاذا خرجت من الرجل سارت بسرعة ولا تزال تجري حتى تصل جرثومة نظيرتها من جراثيم المرأة وهي البويضة . ومتى التقت الجرثومتان اتحدتا وكونتا جرثومة الجنين . وقد ثبت في علم الاجنة أن البويضة ذات الخلية الواحدة تصير علقة ذات خلايا عدة . ثم تصير العلقة مضغة ذات خلايا أكثر عدداً، ثم تصير المضغة جنيناً صغيراً وزعت خلاياه إلى طبقات ثلاث يخرج من كل طبقة منها مجموعة من الانسجة المتشابهة في أول الأمر، فإذا تم نموها كونت جسم الانسان فسبحان الخالق العظيم الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً وبدأ خلق الانسان من طين قال تعالى — ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً

آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم أنكم بعد ذلك لميتون ، ثم انكم يوم القيامة تبعثون ، ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين . ( سورة المؤمنون ) .

**( انه على رجعه لقادر ) :**

فالله سبحانه بعدما لفت الانسان ووجه نظره إلى بدء نشأته ليعلم ويستيقن انه في اطوار خلقته ومدة بقائه في الحياة انما هو في قبضة رب عظيم مدبر حفيظ عليه . بعد هذا ساقه إلى نتيجة أخرى وهي ان الذي قدر على خلقه من الماء الدافق الذي لا صورة فيه ولا تقدير ولا مثال فيه للشخص المخلوق ، قادر على أن يرجع هذا الشخص بعد موته . ويعيده بعد فنائه . بل هذه الاعادة أسهل وأيسر لسبق مثال الشخص وتقدم صورته في الخلق الأول فقال سبحانه : انه على رجعه لقادر يوم تبلى – السرائر .

قال الشيخ محمد عبده رحمه الله في تفسيره لجزء عم :

فهذه الآية استئناف كلام لبيان نتيجة من نتائج النظر السابق أي أعلم بعدما أحكمت نظرك ان الله قادر على ارجاعك واعادتك إلى الحياة في ذلك اليوم . يوم القيامة . وهو اليوم الذي تبلى فيه السرائر وتنفضح الضمائر . ويظهر الطيب والخبيث .

فلا يبقى في سريرة سر ، بل تنقلب كل خفية إلى الجهر ، فلا يكون جدال ولا حجاج ، ولا يستطيع المسيىء أن يقول قد كنت محسناً ، ولا يبقى لذوي الأعمال إلا انتظار الجزاء ، على ما قدموا . فأما حلول عقاب وأما مصير إلى أحسن ثواب « ص ٦٤ » .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره :

انه على رجعة لقادر . فيه قولان . أحدهما على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما . والثاني : انه على رجع هذا الانسان المخلوق من ماء دافق أي اعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر لأن من قدر على البداءة قدر على الاعادة وقد ذكر الله عز وجل هذا الدليل في القرآن في غير موضع . وهذا القول قال به الضحاك . واختاره ابن جرير ولهذا قال تعالى : ( يوم تبلى السرائر ) أي يوم القيامة تبلى فيه السرائر أي تظهر وتبدو ويبقى السر علانية .

والمكنون مشهوراً وقد ثبت في الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يرفع لكل غادر لواء عند استه يقال هذه غدرة فلان بن فلان .

وقال الألوسي رحمه الله في تفسيره :

يوم تبلى السرائر أي يتعرف ويتصفح مـا أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها ومما أخفي من الأعمال ويميز بين ما طاب منها . وما خبث . وأصل الابتلاء الاختبار . وحمـل السرائر على العموم هو الظاهر وأخرج ابن المنذر عن عطاء بن أبي كثير أنها الصوم والصلاة والغسل والجنابة .

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ضمن الله تعالى خلقه أربعـاً الصلاة والزكاة وصوم رمضان والغسل من الجنابة . وهن السرائر التي قال الله تعالى :

يوم تبلى السرائر . وفي البحر ضم التوحيد إليها . ولعلّ المراد بيان تعظيمها على سبيل المبالغة لا حقيقة الحصر . قـال بن عمر رضي الله عنه : يبدي الله يوم القيامة كل سر منها، فيكون مرئياً في الوجوه وشيئاً في الوجوه يعني من اداها كان وجهـه مشرقاً ومن ضيعها كان وجهه أغبر .

وسمع الحسن من ينشد قول الأحوص :

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا
سريرة ود يوم تبـلى السرائر

( فما له من قوة ولا ناصر ) :

أي فلا تكون لأحد من الخلق قوة على الافلات مما قدره له جزاء عمله فلا يقدر على أن ينقذ نفسه من عـــذاب الله .. ولا يستطيع أحـــد به ذلك مطلقاً . فالأمر يومئذ لله والحكم لله والفصل بيد الله يفعل ما يشاء ويختار. يعذب هذا ويغفر لذاك. والقوة التي يدافع الانسان عن نفسه إما من ذاته وإما من غيره.. أما قوته الذاتية فقد نفاها الله تبارك وتعالى : فما له من قوة . وأما من غيره فقد نفاها الله عز وجل بقوله « ولا ناصر » .

فلا هو يستطيع أن يدافع عن نفسه وليس له ناصر يـدافع عنه وفي هذا ما فيه الكفاية من الزجر والتحذير والانذار الكبير فلينتبه لذلك الغافلون .

وقال القرطبي رحمه الله في تفسيره : فما له من منعة تمنعه ولا ناصر ينصره مما نزل به .

وقال سفيـان : القوة العشيرة والناصر الحليف ونعود إلى المعنى الثاني الذي ذكره الامام القرطبي في تفسيره لقوله تعالى : يوم تبلى السرائر حيث قال : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : امتحن الله تعالى خلقه على أربع : على الصلاة والصوم والزكاة والغسل وهي السرائر التي يختبرها الله عز وجل

يوم القيامة . ذكره المهدوي .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة من حافظ عليها فهو ولي الله حقاً ومن اختانهن فهو عدو الله حقاً : الصلاة والصوم والغسل من الجنابة » ذكره الثعالبي .

وذكر الماوردي عن زيد بن اسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأمانة ثلاث : « الصلاة والصـــوم والجنابة » استأمن الله عز وجل ابن آدم على الصلاة فإن شاء قال صليت ولم يصل . استأمن الله عز وجل ابن آدم على الصوم فان شاء قال صمت ولم يصم . استأمن الله عز وجل ابن آدم على الجنابة فان شاء قال اغتسلت ولم يغتسل اقرأوا ان شئتم « يوم تبـــلى السرائر » .

وذكره الثعلبي عن عطـاء . وقال مالك في رواية أشهب عنه سألته عن قوله تعالى : « يوم تبلى السرائر » أبلغك أن الوضوء من السرائر ؟ قال : وقد بلغني ذلك فيما يقول الناس . فأما حديث أحدث به فلا . والصلاة من السرائر والصيام من السرائر ان شاء قال صليت ولم يصل .

ومن السرائر ما في القلوب يجزي الله به العباد . قال ابن العربي : قال ابن مسعود يغفر للشهيد إلا الامانة والوضوء من

الأمانة والصلاة والزكاة من الأمانة والوديعة من الأمانة وأشد ذلك الوديعة تمثل له على هيئتها يوم أخذها فيرمى بها في قعر جهنم . فيقال له : أخرجها فيتبعها فيجعلها في عنقه . فاذا رجاه أن يخرج بها زلت منه فيتبعها فهو كذلك دهر الداهرين .

وقال أبي بن كعب : من الأمانة ان ائتمنت المرأة على فرجها . قال أشهب قال لي سفيان في الحيضة والحمل ان قالت لم أحض وأنا حامل صدّقت ، ما لم تأت بما يعرف فيه أنها كاذبة . وفي الحديث « غسل الجنابة من الأمانة وقال ابن عمر: يبدي الله يوم القيامة كل سر خفي ، فيكون زنياً في الوجوه وشيناً في الوجوه . والله عالم بكل شيء . ولكن يظهر علامات الملائكة والمؤمنين » انتهى .

**( والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع انه لقول فصل وما هو بالهزل . انهم يكيدون كيداً . واكيد كيدا . فمهل الكافرين امهلهم رويدا ) :**

ان الله جلت قدرته بعد أن بين في الآيات السابقة من هذه السورة ، عظيم قدرته وجليل سطوته .. وأنه وحده القادر على اعادة الانسان بعد موته . واحيائه بعد افنائه : « انه على

رجعه لقادر » وقد لفت النظر إلى التدبر في برهان هذه القدرة الخارقة . شرع هنا في بيان اثبات صحة مسألة رسوله الأمين . ونبيه الكريم . إلى الناس كافة » وصحة ما يأتيهم به من عند الله تبارك وتعالى وأهم ذلك كله القرآن العظيم . الذي كذبوه به وقالوا عنه : أنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه . فاقسم الله عز وجل بالسماء التي تفيض بمائها وترجعه إلى الأرض بعد أن صعد منها في سحب متكاثفة متصاعدة من فوق البحار حتى تتجمع بإذن الله في غمام كالجبال ثم تتحلب هذه السحب بالماء فينزل مطراً مغيثاً يحيى به الله الأرض بعد موتها . واقسم الحق تبارك وتعالى بالارض التي تقيم أمور المعاش للناس والحيوان بنباتها وخيراتها

يقول المفسر الشهيد سيد قطب رحمه الله في ظلال القرآن : « والرجع المطر ترجع به السماء مرة بعد مرة والصدع النبت يشق الأرض وينبثق .. وهما يمثلان مشهداً للحياة في صورة من صورها . حياة النبات ونشأته الأولى بماء يتدفق من السماء . ونبت ينبثق من الأرض .. أشبه شيء بالماء الدافق من الصلب والترائب ، والجنين المنبثق من ظلمات الرحم . الحياة هي الحياة . والمشهد هو المشهد . والحركه هي الحركة . نظام ثابت وصنعة معلمة . تدل على الصانع . الذي لا يشبهه أحد لا

في حقيقة الصنعة ولا في شكلها الظاهر .

وهو مشهد قريب الشبه بالطارق . النجم الثاقب وهو يثقب الحجب والستائر . كما أنه قريب الشبه بابتلاء السرائر وكشف السواتر . صفة واحدة تشير إلى الصانع » .

وجواب القسم : انه لقول فصل وما هو بالهزل . فهو الحق أي القرآن ـ الحق ليس بالباطل وهو الجد ليس بالهزل. والقرآن كل القرآن هو القول الفصل الذي لا يتلبس به الهزل والقول الفصل هو الجـــد الذي ينهي كل قول وكل جدل . وكل شك . وكل ريب . وهو القول الذي ليس بعد قول . تشهد بهذا السماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع . وهما ما أقسم بهما الرب تبارك وتعالى. ثم بين سبحانه وتعالى أنه عليم بأن الذين يدافعون عن تلك الأباطيل التي هم عليها. ويقفون في وجه الدعوة ليصدوا عن سبيل الله . انهم قوم ماكرون لا يريدون بك إلا السوء . وسيأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . فلا يحزنك مـا ترى منهم ، ولا تستبطىء حلول النكال ونزول العذاب بهم . بل أمهلهم قليلاً وسترى ما سيحل بهم .

وفي هذا ما فيه من التهديد والوعيد الشديد بأن ما سيصيبهم قريب . سواء كان ذلك في الحياة الدنيا أو في الآخرة . وهو

وعد للنبي صلى الله عليـــه وسلم ولكل داع إلى الحق بأنهم سيبلغون من النجاح والفوز والنصر ما يستحقه عملهم واخلاصهم وثباتهم على الحق. وان المناوئين لهم هم الخاسرون وهم المندحرون وهم الصاغرون مهما طال بهم الأمد فـــان عاقبتهم إلى الثبات وسوء المنقلب والمصير . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

## ( والسماء ذات الرجع ) :

ان الله سبحانه وتعالى بعد أن أكد بالقسم الأول في أول السورة أن على الأنفس رقيباً واستدل عليـــه وفي ذلك اثبات للالوهية وتقرير لاحاطة علم الله وقدرته بالأنفس في جميـــع أطوارها وهو الركن الأول من أركان عقائد الدين . وبعد أن بـــين قدرته على اعادة الانسان بعد موته . وهو اثبات لليوم الآخر الذي هو الركن الثاني . جاء بنا هنا إلى الركن الثالث من أركان عقائد الدين وهو رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فابتدأ الكلام فيه بقسم أيضاً لشدة نزاع الجاحدين وتكذيبهم فيها حيث قال : والسماء ذات الرجع والرجع هو المـاء وأمتع ما ينتظره الانسان من السماء هو الماء ماء المطر « والصدع » النبات لأنه يصدع الأرض أي يشقها . وأفضل ما تميل إليـه الأنفس من الأرض هو نباتها .

والسماء ذات الرجع أي ذات المطر وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين . وقيل يعني بالرجع شمسها وقمرها ونجومها تغيب ثم ترجع فتطلع مرة بعد مرة .

وقيل رجع السماء هو اعطاؤها الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال على مرور الزمان فترجع بالغيب وارزاق العباد وغير ذلك من الخيرات والبركات .

قال الألوسي رحمه الله في تفسيره : وقال ابن زيد:السماء هي المعروفة والرجع رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال ومن منزلة إلى منزلة فيها وقيل رجوعها نفسها فانها ترجع في كل دورة إلى الموضع الذي تتحرك منه . وهنا مبني على السماء والفلك واحد فهي تتحرك ويصير اوجها حضيضاً وحضيضها أوجاً . وقد تقدم أن ظاهر كلام السلف أن السماء غير الفلك وأنها لا تدور ولا تتحرك والذي رأى الفلاسفة ومن تابعهم . وقيل الرجع الملائكة سموا بذلك لرجوعهم باعمال العباد » انتهى .

والأرض ذات الصدع :

وهو ما تتصدع عنه الأرض من النبات أي تنشق فيخرج منها النبات والأشجار والثمار ذات الأشكال المختلفة والطعوم

المتنوعة والروائح الزكية المتعددة .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : « فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً فانبتنا فيهـــا حباً وعنباً وقضبا وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا . وفاكهة وابا متاعاً لكم ولانعامكم . » ثم ذكر سبحانه وتعالى المقسم عليه فقال : ( إنه لقول فصل وما هو بالهزل ) .

فالله تبارك وتعالى أقسم بالسماء والأرض على ان هذا القول وهو القرآن العظيم الذي جاء به رسولنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم هو القول الحق الذي لا مجال للريب فيه وهو الجد الذي لا هزل فيه فمن حقه أن يهتدي به الغواة وتخضع له رقـــاب العتاة . وهو كذلك فهو كتاب الله الخالد ودستوره الماجد الذي فتح الله به اعيناً عمياناً وآذاناً صماً وقلوباً غلقاً وجعله الله حجته الباقية إلى يوم الدين . أخرج الترمذي والدرامي وابن الأنباري عن الحارث الأعور عن علي كرم الله وجهه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنها ستكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله . قال : كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصيه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله وهو حبل الله المتـــين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ فيه الأهواء ولا تشبع منه العلماء ،

ولا تلتبس به الالسن . ولا يختلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه هو الذى لم تنته الجن لما سمعته ان قالوا : « إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد » من قال به صدق ومن حكم به عدل . ومن عمل بـــه أجر ومن هدي به هدي إلى صراط مستقيم .

**( انهم يكيدون كيداً ) :**

بعد أن ذكر سبحانه الأركان الثلاثة لعقائد الاسلام ومبادىء الدين وهي الألوهية . والمعاد . والرسالة وكتابها الأقدس وهو القرآن الكريم . اخذ هنا سبحانه يذكرنا بحال الجاحدين للحق المحاربين له ويبين عز وجل ما يدبره هؤلاء الكفرة للمؤمنين وما تحويه صدورهم وقلوبهم السوداء من حقـــد وغل وحسد للمؤمنين فقال تعالى : **( انهم يكيدون كيداً )** .

الكيد هو المكر فاذا أسند إلى الله سبحانه فهو للمشاكلة كما في هذه الآية ويراد منه لازمه وهو الوصول بالعامل إلى عاقبة عمله من حيث لا يشعر بها وقد يكون المكر والكيد ايقـــاع المكروه على غره وأخذ المكروه من حيث لا يعلم كيف أخذ . فيكون استعماله في جانب الحق على الحقيقة لأن الله عز وجل يمهل الحائدين عن أمره الصادين عن سبيله ثم يأخذهم أخذ عزيز

مقتدر وهم غافلون نائمون على فراش الأمن .

وهذا هو ما يعبر عنه في اللغة بالمكر وان كان في جـــانب المخلوق يحتاج الى حيلة لأنه لاقوة له على مثل هذا الابحيلة . وفي جانب الخالق يتبرأ من الحيلة لأنه جل شأنه له الحول كله والقوة جميعها .

هذا ما نقله الشيخ محمد عبده رحمه الله في تفسير لجزء عم ثم قال : يقول والله أعلم أن الذين يحرصون على ما كانوا عليه ولا يستمعون قولك فيما تدعوهم إليه ويزينون للناس مشايعتهم على اهوائهم ويموهون الأباطيل ليخدعوا بهـــا عقولهم اولئك قوم ماكرون خادعون لا يريدون بك ولا بمن ينخـــدع لهم إلا السوء غير أني قد قضيت بأن لا مفر لهم من عاقبة أمرهم ولا محيد لهم عما تؤدي إليـــه سيئات أعمالهم فيصيبهم العقاب من حيث لا يشعرون فلا يحزنك ما ترى منهم ولا تستبطيء حلول النكال بهم . بل مهلهم أي لا تستعجل عقابهم « وأمهلهم » بمعنى مهلهم . انتهى .

وهذا كقوله تعالى : واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك .

بعد ذلك ذكر الحق تبارك وتعالى ما قابلهم به ربهم وما

جازاهم عليه كفاء عملهم ومكرهم وخداعهم للناس وتشكيكهم في عقائدهم كقولهم لهم : « مـــن يحيي العظام وهي رميم » وقولهم : ان هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر .؟

أو بالطعن بالرسول كقولهم ساحر . أو مجنون أو شاعر ومؤامرتهم على قتله واهدار دمه صلى الله عليه وسلم بعـد كل هذا ذكر جزاءهم . فقال تعالى :

( واكيد كيداً ) :

ومعناه ان الله جلت قدرتـــه يقابل كيدهم بنصر الرسول صلى الله عليه وسلم واعلاء دينه ، وجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى . وقد سمى مجازاتهم كيداً منه للتجانس في اللفظ كما قـــال تعالى : نسوا الله فانساهم أنفسهم « نسوا الله فنسيهم » وحاشا لله أن ينسى . وما كان ربك نسيا » .

قام الأمام الرازي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية : « وأعلم أن الكيد في حق الله تعالى محمول على وجوه : احدها دفعـــه تعالى الى كيد الكفرة عن محمـد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقابل ذلك الكيد بنصرته واعلاء دينه تسمية لاحد المتقابلين باسم كقوله تعالى : وجزاء سيئة سيئة مثلها .

قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحـــد علينا
فنجهل فـــوق جهل الجاهلينا

وكقوله تعالى : نسوا الله فأنساهم أنفسهم . وقوله تعالى : يخادعون الله وهو خادعهم .

وثانيها : ان كيده تعـــالى بهم هو امهاله اياهم كفرهم حتى يأخذهم على غره .

ثم أمر الله تبارك وتعالى رسوله الحبيب صلى الله عليه وسلم ان يتأنى عليهم ، ليرى اخذه الأليم لهم فقال :

**فمهل الكافرين :**

اي سر في دعوتك الحقة ودم على عملك وجهادك الصادق في سبيل ربك ولا تستعجل عذابهم . فانّا سنمهلهم ليزدادوا اثما حتى اذا اخذناهم اخذ عزيز مقتدر بحيث لا يبقى لهم من راحم في الارض ولا في السماء : ثم طلب تأكيد الإمهال واقته بوقت قريب ليس بالبعيد . فقال :

**امهلهم رويداً :**

أي امهالاً قليلا . وانما قلل الامهال لان ما هو كائن آت لا

محالة فهو قليل والمراد به يوم القيامة . وقيـــل اراد يوم بدر والمعنى : لا تعجل عليّ في طلب هلاكهم بل أصبر عليهم قليلا فان الله مجزيهم لا محالة اما بالقتل والذل في الدنيا أو بالعذاب في الآخرة .

وفي هذا بعث للطمأنينة الى قـــلوب المؤمنين الذين كانوا يخشون صولة كفار قريش وغيرهم ويحذرون – اعتداءاتهم التي لا حد لها ولا رحمة فيهـــا . وفيه تخويف للكفار من عاقبة اصرارهم على مـــا هم فية من الكفر والمشاقة لله ولرسوله والمؤمنين . ونحو الآية . قوله تعالى : نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ .

قال المفسر الشهيد سيد قطب رحمـــه الله في ظلال القرآن : –

ونلحظ في التعبير الايناس الالهي للرسول : « فمهل الكافرين امهلهم رويداً » كأنه هو صلى الله عليه وسلم صاحب الأمر . وصاحب الاذن ، وكأنه هو الذي ياذن بامهالهم أو يوافق على امهالهم ، وليس من هذا كله شيء الرسول صلى الله عليه وسلم . إنما هو الايناس والود في هذا الموضع الذي تتنسم نسائم الرحمة على قلبه صلى الله عليـــه وسلم . الايناس الذي يخلط بين رغبة

نفسه وارادة ربه . ويشركه في الأمر كأن له فيه شيئاً . ويرفع الفوارق والحواجز بينه وبين الساحة الالهية التي يقضي فيها الأمر ويبرم وكأنما يقول له ربه : انك مأذون فيهم ولكن امهلهم . امهلهم رويداً ..فهو المود العطوف والايناس الطيف . يمسح على الكرب والشدة والعناء والكيد فتمحى كلها وتذوب.. ويبقى العطف الودود » ..

بهذا ننتهي من تفسير سورة الطارق والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين .. والله أعلم بمراده .